الحكم العثماني الأول لليمن:١٥٣٨-١٦٣٥م

اليمن قبيل قدوم العثمانيين (١٥٠٨م - ١٥٣٨ م)

منذ العصور القديمة والبحر الأحمر هو الشريان النابض لحركة التجارة بين الشرق والغرب.لذلك كانت الإمارات اليمنية المطلة على هذا الساحل،أكثر ثراء ،وقوة من مثيلاتها في المناطق الداخلية،فعلى حين كانت عائدات الجمارك من موانئ الدولة الرسولية ، الطاهرية تفوق المليونين وثلاثمائة ألف دينار في السنة الواحدة بحسب ما أورده R.BSerjeant في (كتابه صنعاء)،كان الأئمة الزيديون في المناطق الشمالية يعتمدون اعتمادا رئيسا على ولاء القبائل الشمالية لدعواهم ،والتزامهم بدفع العشور التي كانت محل رفض تذمر في بعض الأوقات.

وبقدوم البرتغاليين إلى البحار الشرقية ،وعملهم الدءوب على احتكار تجارة الشرق،تراجعت عائدات تلك الموانئ اليمنية أسوة بمثيلاتها على سواحل البحر الأحمر الشرقية والغربية ،مما حدا بالإمارات الإسلامية في اليمن ،والهند ،وإفريقيا إلى طلب العون من الدول الإسلامية الأكثر قوة لمواجهة هذا التحدي الذي فرضه الوجود البرتغالي في البحار الشرقية..وتعددت المراسلات بين الحكام الطاهرين في اليمن ،وبين السلطان المملوكي قانصوة الغوري في مصر. ولما كانت الدولة المملوكية قد تأثرت -هي الأخرى- اقتصاديا ،بادر السلطان قانصوة الغوري بإعداد حملة قوية عام ١٥٠٨م لمواجهة البرتغاليين في الهند تحت قيادة حاكم جدة المملوكي حسين الكردي.

وجدت هذه الحملة كل دعم وتأييد من حاكم الطاهريين في اليمن السلطان عامر بن عبد الوهاب،الذي رأى أن في دعمه لهذه الحملة خلاصا لدولته من الخطر البرتغالي . بيد أن هذه الحملة منيت بهزيمة ساحقة على يد البرتغاليين ،حيث دمرت كافة قطع الأسطول المملوكي ،ونجا قائدها حسين الكردي بأعجوبة من الموت.

ترتب على هزيمة الأسطول المملوكي في الهند نتائج وخيمة على إمارات الساحل في الجزيرة العربية،إذ تزايدت هجمات البرتغاليين على موانئها،وبات البرتغاليون أصحاب الكلمة العليا في السواحل الهندية ،علاوة على أن أساطيلهم بدأت في التوغل إلى داخل البحر الأحمر ،ومحاصرة موانئه في اليمن والحجاز. ونتيجة لهذه الهزيمة تزعزعت ثقة الحكام المحليين في السواحل اليمنية في إمكانات المماليك وقدراتهم على مواجهة هكذا خطر.وقد ظهر ذلك جليا عندما أرسل السلطان المملوكي حملته البحرية الثانية عام ١٥١٥م ،حيث لم تجد هذه الحملة الدعم والترحيب الذي كان لسابقتها ،مما دفع قائد الحملة،حسين الكردي، لخوض حروب متعددة على سواحل اليمن بدلا من التوجه لمحاربة البرتغاليين على ساحل المليبار .

تطرح بعض المصادر المعاصرة وجهة نظر مؤداها أن ما دفع المماليك للسيطرة على السواحل اليمنية رغبتهم في اتخاذ هذه السواحل قاعدة لحروبهم ضد البرتغاليين لذ فإن حروبهم على الساحل اليمني لم تكن لمجرد عقاب السلطان عامر بن عبد الوهاب لموقفه السلبي من دعم الحملة. ويعزز لنا مسار الأحداث التاريخية لاحقا هذه الفرضية ، حيث أن العثمانيين انتهجوا ما نزع إليه المماليك من اتخاذهم السواحل اليمنية قواعد عسكرية في صراعهم مع البرتغاليين.ولعل هكذا إستراتيجية كانت تتوافق وإمكانات المماليك البحرية المحدودة في المنطقة،مقارنة بإمكانات البرتغاليين.

وعودا على حملة المماليك الثانية ، فقد وصلت القوات المملوكية إلى جزيرة كمران ،وهنالك تلقى قائدها حسين الكردي رسائل من إمام الزيديين يحيى شرف الدين – بحسب بعض المصادر اليمنية – تحثه على مهاجمة حاكم الطاهريين السلطان عامر بن عبد الوهاب، ويعده فيها الإمام بالدعم لتحقيق هكذا هدف .ولعل الإمام عمد من مسعاه هذا إلى إضعاف قوة الطاهريين في اليمن ،إذ أن الصراع بين الإمام يحيى شرف الدين ،والسلطان عامر بن عبد الوهاب كان محتدما قبيل قدوم المماليك ، وأن الغلبة في هذا الصراع كانت في سنواتها الأخيرة للطاهريين ،وكأن الإمام

يحيى شرف الدين استشعر أن وجود القوات المملوكية على الأراضي اليمنية كان مؤقتا ،وأنهم جائوا لتحقيق مهمة محددة وسيغادرون المنطقة حال فراغهم منها .

بدأ المماليك حروبهم مع السلطان عامر بن عبد الوهاب ونجحوا في هزيمة قواته بالقرب من زبيد ،مما اضطر السلطان عامر الانسحاب إلى تعز، وتبعه المماليك إلى تعز و هاجم المماليك تعز ، وسيطروا عليها ، ثم اتجهوا إلى المقارنة حيث كانت عاصمة السلطان عامر والمدينة التي تحوي نفائس ممتلكاته فسيطروا عليها ، ثم توجت القوات المملوكية بعد ذلك إلى صنعاء فسيطروا عليها . وواصل المماليك حروبهم حتى سيطروا على معظم مناطق اليمن. ومن الواضح أن المماليك لم يعانوا كثيرا في حروبهم هذه بسبب فارق الإمكانات العسكرية بينهم وبين قوات السلطان عام ،فبينما كانت القوات المملوكية تقاتل مستخدمة الأسلحة النارية ،افتقدت قوات الطاهريين لهكذا سلاح ، حيث اليمنيين لم يتعرفوا بعد على الأسلحة النارية . ومن الجدير بالذكر أن السلطان عامر بن عبد الوهاب كان قد قتل وهو يحاول الفرار إلى بلدة ذي مرمر ، وفقد الطاهريون بمقتله أحد أعظم قادتهم .

لم يمهل القدر المماليك كثيرا ليكملوا سيطرتهم على اليمن ،ففي عام ١٥١٧م هاجم السلطان سليم الأول مصر ،واسقط دولة المماليك فيها ،وفقدت القوات المملوكية باليمن الدولة الحاضنة لهم في مصر.في الوقت ذاته أعلن الشريف بركات حاكم مكة دخوله تحت التبعية العثمانية، فسارع المماليك الساكنون مدينة جدة بالهرب منها إلى إخوانهم في زبيد وتعز ،خشية من عواقب سخط أهالي الحجاز عليهم .وأعلن قائد المماليك في صنعاء تبعيته الاسمية للسلطان العثماني سليم الأول.

إزاء تطور الأحداث في المنطقة قرر قائد المماليك في صنعاء مغادرتها مع جيشه تاركا حامية صغيرة فيها. فراسل كبار أهالي صنعاء، الإمام شرف الدين طالبين منه القدوم إلى صنعاء والسيطرة عليها،خشية من مغبة الفراغ السياسي الذي سيخلفه رحيل المماليك عنها. . وصل الإمام بقواته إلى صنعاء ،حيث أمن الحامية المملوكية بها ،واخرج أفرادها من صنعا سالمين.

باشر الإمام يحيى شرف الدين من صنعاء حروبه للتوسع في مناطق اليمن منتهزا فرصة تضعضع قوات خصومه من الطاهريين والمماليك.فسيطر على تعز عام ١٥٣٤-٩٤١/٥هـ. وواصلت قواته بقيادة ابنه المطهر بن شرف الدين سيطرتها على مزيد من مواقع الطاهريين حتى حاصرت سلطان الطاهريين عامر بن داؤد في عدن.

الحكم العثماني الأول لليمن : ١٥٣٨م-١٦٣٥م)

أسباب سيطرة العثمانيين المباشرة على اليمن:

عندما سقطت دولة المماليك في مصر على يد السلطان العثماني سليم الأول عام ١٥١٧م،بدت هيمنة العثمانيين المعنوية واضحة على بلدان حوض البحر الأحمر ،وعزز هذه الهيمنة ما كانت عليه الحكومات المحلية في هذه المناطق من ضعف شديد جعلها عاجزة عن حماية إماراتها من الأخطار البرتغالية المتزايدة في المنطقة.لذا سارع شريف مكة ،بإرسال مفاتيح الكعبة للسلطان العثماني كناية عن دخوله وإمارته تحت طاعة العثمانيين،كذلك فعل المماليك في اليمن عندما التحق بهم مماليك الحجاز خشية من ثورة أهالي الحجاز عليهم بعد سقوط دولتهم في مصر(١)

استشعر العثمانيون مسؤولياتهم تجاه حماية الأماكن المقدسة في الحجاز خاصة والمسلمين في الهند وجنوب الجزيرة العربية عامة من الأخطار البرتغالية ، فصدر مرسوم السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٨م/٩٤٥هـ لواليه بمصر سليمان باشا الأرنؤوطي ،بتسيير حملة كبيرة لمواجهة البرتغاليين ،حيث ورد في هذا الرسوم ما نصه " عليك يا بيك البكوات بمصر سليمان باشا أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه ، بتجهيز حقيبتك وحاجتك ، وإعداد العدة بالسويس للجهاد

في سبيل الله ، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كاف ، فعليك أن تخرج إلى الهند وتستولي وتحافظ على تلك الأجزاء ، فإنك إذا قطعت الطريق وحاصرت السبل المؤدية إلى مكة المكرمة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون، وأزلت رايتهم من البحر".٢ .

وبتفحصنا لأمر السلطان سليمان القانوني هذا نرى أن أمن الأماكن المقدسة بالحجاز ،هو الهاجس الذي كان يقلق السلطان العثماني ،وأن من أهم مسؤولياته كأقوى حاكم مسلم في هذا المرحلة التاريخية هو حماية أقدس مقدسات المسلمين من الخطر البرتغالي الذي يتهددها،خاصة

وأن البرتغاليين كانوا قد شددوا ضغطهم على الحكام المسلمين في كل من جنوب وشرق الجزيرة العربية علاوة على الممالك الإسلامية بساحل الهند الغربي (المليبار) حتى علت أصوات حكام هذه المناطق مطالبة بمساعدة العثمانيين .فتوافدت إلى الأستانة رسل كل من كاليكوت عام ١٥٢٧م ،وديو عام ١٥٣٢م ،إضافة إلى سلطنة دلهي عام١٥٣٦م كما وصلت بعثة حاكم كجرات بهادور شاه إلى الأستانة محملة بالهدايا للمسئولين العثمانيين ،والوعود بتحمل نفقة إرسال حملة مكونة من عشرة آلاف جندي عثماني إلى تلك البلاد لمساعدة حكامها في مواجة الإعتداءات البرتغالية (٣) . من جانبهم عمد البرتغاليون إلى التضييق على اتصالات هؤلاء الحكام بالعثمانيين ،فعندما نمى إلى علمهم أمر هذه الاتصالات ،قاموا بقتل سلطان كجرات بهادر شاه ، مما أدى إلى إثارة غضب السلطان سليمان القانوني الذي اقسم يمينا للانتقام لهذا الحاكم ،فأمر واليه بمصر لإعداد العدة وتسيير حملة كبيرة للهند.(٤) .فجاءت حملة الخادم إذا استجابة لدوافع الدولة الإستراتيجية ،وعاطفة السلطان الدينية.

حملة الهند (حملة سليمان باشا الخادم)(١٥٣٨م/٩٤٥هـ) :-

- صدرت أوامر السلطان سليمان لواليه في مصر عام ١٥٣١م ببناء وتجهيز سفن من مختلف الأنواع والأحجام ولما تم بناء هذه السفن سارت الحملة في عام ١٥٣٨م/٩٤٥هـ بقيادة سليمان باشا الأرنؤوطي) بهدف رئيس هو إبعاد شبح البرتغاليين عن الأماكن المقدسة في الحجاز.

اعد الخادم عدته بإرسال وفد مكون من ثلاثين شخصا لاستطلاع مواقف حكام كل من مكة المكرمة ،وعدن، والشحر علاوة على المماليك في زبيد ، ولما عادت البعثة من مهمتها، تحرك الخادم بأسطوله الذي تراوح عدد سفينة من ست وستين إلى مائة سفينة .[٥] و بلغ عدد جند الحملة عشرين ألف جندي كان منهم سبعة آلاف انكشاري و ثلاثة عشر ألف من الجنود البحريين ، إضافة إلى ما يقرب من ألف وخمسمائة متطوع مسيحي من داخل الدولة العثمانية ومن خارجها، مع عدد من المعاقبين بأحكام شرعية ليقوموا بأعمال التجديف في السفن[٦]

وقد تباين موقف حكام الإمارات السابق ذكرها من حملة الخادم . فعلى حين كان موقف شريف مكة وحاكم الشحر ايجابيا ، تلكأ عامر بن داود حاكم الطاهريين في إعطاء إجابة شافية تحدد موقفه من الحملة.

تحرك سليمان باشا الخادم بأسطوله من السويس في ١٣ يونيو سنة ١٥٣٨م/٩٤٥هـ وحال وصوله إلى عدن عمد الخادم إلى الغدر بعامر بن داوؤد الطاهري بعد أن اطمأن على أن جنوده قد احكموا السيطرة على حامية المدينة ،حيث دعاه لوجبة غداء على ظهر إحدى سفنه ،ثم غدر به فقتله مع بعض وزرائه ، وعلق رأسه على صارية السفينة ،.

حامت الشبهات حول إتصالات السلطان الطاهري بالبرتغاليين ، لذلك لم يكن هذا الحاكم محل ثقة العثمانيين ، وبيّت الخادم أمر الغدر به حال تمكنه من ذلك[٧] وبعد أن أحكم الخادم سيطرته على عدن في ٢٧ /٧/ ١٥٣٨م/٩٤٥هـ ، ترك بها حامية تقدر بخمسمائة جندي وتوجه إلى ميناء ديو على الساحل الهندي الغربي في ١٩ أغسطس ١٥٣٨م/٩٤٥هـ ، حيث وصل هناك في ٤ سبتمبر سنة ١٥٣٨م/٩٤٥هـ[٨] .

ظلت قوات الخادم محاصرة لحصن ديو البرتغالي قرابة عشرين يوما ،حيث تمكنت المدفعية العثمانية خلالها من فتح ثغرات كبيرة في جدار الحصن ، مكبدة البرتغاليين في ذلك الحصن خسائر فادحة تقدر بنحو ألف قتيل [٩]، وعندما قاربت ذخائر العثمانيين على النفاذ ، صدرت أوامر سليمان باشا الخادم برفع الحصار والعودة الى السفن بل ومغادرة ساحل الهند الى اليمن ، وغادرت الحملة السواحل الهندية متجهة إلى الشحر حيث اكد حاكمها بدر بو طويرق ولائه للعثمانيين،وثبته الخادم على حكم الشحر بل جعله حاكما عاما على منطقة تمتد من بوابة عدن حتى حدود ظفار[١٠]بعد ذاك سيطر الخادم المخا وزبيد وما حولهما بعد أن قتل حاكم المماليك النوخذة احمد [١١] ، وأكمل الخادم السيطرة على ما تبقى من مدن الساحل اليمني كجازان وغيرها ليفرض بذلك سيطرة العثمانيين المباشرة على السواحل اليمنية ، وعاد الأسطول العثماني بعد إنجازه هذه المهمة إلى السويس . أما الخادم فقد وصل إلى الأستانة في ٢٧ فبراير سنة ١٥٣٩ م /٩٤٦هـ بعد تأديته فريضة الحج حيث أستقبل هناك استقبال الأبطال.[١٢]

سيطرة العثمانيين على المناطق الداخلية باليمن :١٥٤٦م

أخذ العثمانيون بتنظيم ممتلكاتهم في على سواحل اليمن وفق ما تمليه ظروف حكمهم لهذه البلاد. حيث أرسل السلطان سليمان القانوني مرسومين لتثبيت الأميرين اللذين سبق وأن أختارهما سليمان باشا الخادم ليكونا حاكمين على عدن وزبيد. ولإظهار نفوذه وسيادته على اليمن ، أرسل السلطان العثماني رسالة للإمام شرف الدين في اليمن يأمره بإبقاء الأوضاع على ما هي عليه ،وسريعا ما تحولت اليمن إلى إيالة عثمانية خاضعة لما تخضع له الإيالات العثمانية من تنظيم إداري .وتبعا لذلك ظهرت في اليمن وظائف عثمانية تقليديه مثل الوالي ،الكتخدا،الدفتردار ،والسنجق،والأغوات وغيرهم.وكان أول والي عثماني لليمن هو مصطفى باشا النشار إذ صدر قرار تعيينه بالولاية سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤١م.واستمرت ولايته خمس سنوات تميزت بالهدوء النسبي على النطاق الداخلي ،أما ما يخص أوضاع البرتغاليين ونشاطهم بالبحر الأحمر ، فقد حاول البرتغاليون التغلغل داخل البحر الأحمر، وتمكنت سفنهم من الوصول إلى ميناء الطور، بيد أن هذا التغلغل لم تسفر عن نتائج تستحق الذكر ،إذ تنبه العثمانيون لتحركاتهم،فافسدوا عليهم عنصر المفاجئة التي عول عليها البرتغاليون كثيرا.

وقد عمل النشار خلال سنوات حكمه على دعم الممالك الإسلامية على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر، حيث أرسل لمسلمي الحبشة بعض الدعم العسكري - بناء على طلبهم - لمحاربة ملك الحبشة وحلفاؤه البرتغاليون. وحدثت في عهده بعض المناوشات بين العثمانيين والبرتغاليين عند مدخل البحر الأحمر، وبحر العرب ،كما حدثت بعض المناوشات بينهم وبين الزيديين في تعز.بعد انقضاء خمس سنوات على ولايته لليمن صدر أمر السلطان بتعيين اويس باشا واليا جديدا لليمن عام ١٥٤٦م.وقد وصل هذا الوالي إلى اليمن مزودا بقوة كبيرة في معداتها وأدواتها الحربية ،ولعل هذا ما يفسر رغبة العثمانيين تحويل اليمن لقاعدة حربية تستخدم في صراعهم مع البرتغاليين.وفي عهد هذا الوالي بدأ العثمانيون توسعهم في المناطق الداخلية لليمن ، ويمكن أن نجمل أسباب توسع العثمانيين داخل اليمن فيما يلي من نقاط:

- الخلاف داخل الجبهة الزيدية : (شرح لهذا الخلاف)
- تأليب طائفة الإسماعيليين العثمانيين لمهاجمة ممتلكات الزيديين.(توضيح اسباب ذلك)

- رغبة العثمانيين في تأمين مواقعهم في سواحل اليمن بالتوسع في الداخل(تبرير هذا الرأي)
- إشغال الجند حتى لا ينصرفوا إلى العبث ، وإثارة الفتن (تبرير هذا الرأي
- الخلاف المذهبي (شرح وبيان لوجهة نظر الباحث في هذا)

إثر الخلاف الذي حدث بين المطهر ووالده اتصل المطهر بالعثمانيين يدعوهم لمهاجمة مناطق والده،ويبدوا أن العثمانيين كانوا قد بيتوا النية لغزو المناطق الداخلية باليمن فسار الجيش العثماني إلى تعز وذلك لأهمية تعز الإستراتيجية ،ولأن الوالي العثماني أراد أن يؤمن خطوط رجعته قبل أن يلقي بجيشه في أتون معركة لا يعرف مصيرها.وبعد مقاومة محدودة سقطت تعز بيد العثمانيين،ومن ثم تقدم الجيش إلى منطقة ذمار إلى الجنوب من صنعاء،وهنا حدثت بالجيش فتنة راح ضحيتها الوالي العثماني أويس باشا حيث قتل عام ١٥٤٧م من قبل أحد بقايا المماليك.تولى قيادة الجيش العثماني احد قادته ويدعى ازدمر حيث أكمل السيطرة على المناطق الداخلية،وحاصر المطهر بن شرف الدين في منطقة ثلا ومن ثم عقد صلحا معه،وكمكافأة له صدر أمر السلطان العثماني سليمان القانوني بتعيينه واليا على اليمن واستمر في ولايته حتى عزل عن ولاية اليمن سنة ١٥٥٥م بناء على طلبه وعين واليا على ولاية الحبش التي استمر بها حتى وفاته سنة ١٥٦٠م.

عُين مصطفى النشار للمرة الثانية واليا على اليمن خلفا لأزدمر باشا .ولم تدم فترة حكم هذا الوالي لأكثر من ستة أشهر حيث مرض ومات باليمن . وقد اضطربت أحوال العثمانيين في عهده حين أظهرت بعض عناصر القوات العثمانية تمردها على الوالي كعادة الجند عند خلع والٍ وتعيين آخر. ومما زاد من تردي الأوضاع الأمنية أن مصطفى النشار أساء معاملة حلفاء العثمانيين من الأمراء الزيديين.مما دفع هؤلاء الأمراء لتحين الفرص وإعلان تمردهم على العثمانيين .وعند مرض النشار المرض الذي توفي فيه ،حدث خلاف شديد بين الأمراء العثمانيين كاد أن يؤدي إلى حرب بين صفوف العثمانيين باليمن. حيث عهد مصطفى النشار بإدارة الولاية لدفتر دار الولاية فنازعه الأمر كاشف تعز الذي نجح في تولي مقاليد الأمور بعد أن مال الدفتر دار للسلم وقد .أدت هذه الفتنة إلى زعزعة مكانة الإدارة العثمانية في أعين اليمنيين ،وازداد الأمر سوءا عندما تولي أمر اليمن بعد مصطفى النشار عدد من الولاة الضعاف الذين غلبوا مصالحهم الخاصة على مصلحة الدولة العليا.

كان أول هؤلاء الولاة مصطفى باشا قرة شاهين الذي دامت ولايته ٤ سنوات،واشتهر بحبه للمال ،وضيق على الجنود في مصروفاتهم ،ولم يؤثر عنه إتيانه لأعمال إصلاحية عامة في اليمن، بل اهتم كثيرا بجمع الأموال التي نقلها معه نقل معه ووظفها لدى بلاط السلطان لتولي أمر ولاية مصر.

جاء بعده في الولاية محمود باشا الذي كان مثالا صارخا للفساد والأنانية ،حيث وظف كل الإمكانات المتاحة لديه لتحقيق أغراضه الخاصة،وقد اشتهر في اليمن على أنه مثال للوالي الغادر الخداع حتى أصبحت وعوده مجالا لضرب الأمثال والتفكه بها عند اليمنيين، كان يقال " وعود محمودية" لكل وعد كاذب. استمرت ولايته اربع سنوات. ثم عزل وانتقل لمصر بناء على طلبه .خلفه في الولاية رضوان باشا وكان شابا يافعا كثير الغرور . عمل رضوان باشا على تتبع المفاسد التي كان يمارسها سابقه في ولاية اليمن وكشفها للسلطان العثماني ،في ذات الوقت تجاهل فيه تجديد الصلح مع المطهر بن شرف الدين ،كما كان يفعل سابقوه في الولاية ، بل تعامل بتعالي مبالغ فيه مع مندوب المطهر،الأمر الذي عجل بتمرد المطهر بن شرف الدين كما سيذكر لاحقا.

ومن المعروف أن والي مصر بحكم منصبه كان العين الناظرة للسلطان العثماني على اليمن ، وقد تمكن محمد باشا بعد توليه ولاية مصر أن يعرف بمساعي رضوان باشا لكشف ممارساته باليمن ،فأخذ يعمل على الكيد لرضوان باشا مستغلا منصبه في ولاية مصر

محمود

،وموظفا ما لديه من أموال في بلاط السلطان لتحقيق مآربه ،وقد نجح في إقناع الإدارة العثمانية لتقسيم اليمن إلى ولايتين عثمانيتين وضع رضوان باشا واليا على الشق الشمالي ، الأكثر صعوبة وفقرا واضطرابا سياسيا ،بينما عين والي آخر هو مراد باشا على الشق التهامي ،وقد أدت هذه السياسة إلى نزاعات عدة بين الواليين على الصلاحيات والحدود بين الولايتين.

وقد حدث الصدام المسلح بين العثمانيين والقبائل اليمنية في عهد هذا الوالي ،وخرج المطهر في المحصلة النهائية منتصرا.حيث أدت سياسة رضوان باشا المتسرعة والمتعالية إلى نجاح المطهر في كسب تأييد الإسماعيليين ، وكثير من شيوخ القبائل في حربه للعثمانيين.ولم يستطع الواليين العثمانيين بسبب النزاع الذي نشأ بينهما الوقوف في وجه جموع المطهر بن شرف الدين ،التي قواته تسير من نصر إلى نصر،وقد نجحت إحدى القبائل التهامية المؤيدة للمطهر بإلقاء القبض على الوالي/مراد باشا وقطع رقبته وإرسالها إلى المطهر،وإزاء تدهور الأوضاع في اليمن وعجز رضوان باشا السيطرة عليها صدر امر السلطان العثماني بعزل رضوان باشا عن الولاية وتعيين واليا جديدا هو حسن باشا. وغدت ولاية اليمن بلا وال فعلي حيث عزل رضوان وقتل مراد باشا ولم يصل بعد الوالي الجديد لليمن ، وبدا أن المطهر هو رجل الساحة في اليمن فعليا.عند وصول حسن باشا لليمن كان المطهر قد سيطر على صنعاء ، وكانت قواته تحاصر تعز ،مما اضطر حسن التحصن في زبيد انتظارا للمساعدات التي تصله من مصر.في هذه الأثناء عملت قوات المطهر على اخراج الحاميات العثمانية من المناطق الشمالية و تعدت ذلك إلى مهاجمتها في المواقع التهامية،حتى حصر وجود العثمانيين في عدن وزبيد وما حولهما فقط.ويمكن لنا أن نجمل أسباب تردي أوضاع العثمانيين في اليمن في هذه الفترة للعوامل التالية:

- سوء سياسة الولاة التي أدت إلى ضعف أوضاع العثمانيين المالية، والسياسية والاقتصادية.
- تقسيم اليمن إلى ولايتين أضعف كلا منهما الآخر.
- تذمر اليمنيين من سياسة العثمانيين ،وانتشار روح الثورة بينهم.
- قوة شخصية المطهر وحنكته السياسية. ونجاحه في المحافظة على وحدة الجبهة الزيدية.

حملة سنان باشا ١٥٦٨-١٥٧٠م

أطلق النهروالي على هذه الحملة مسمى الفتح العثماني الثاني بحكم أنها أعادت الحكم العثماني لليمن قويا ،ونجحت في إخماد تمرد المطهر بن شرف الدين. ومع تحفظنا على استعمال كلمة فتح إلا أننا نشاطر النهروالي الرأي بأن هذه الحملة أعادت تمكين العثمانيين لحكم اليمن ليستمر حكمهم الأول فيها إلى عام ١٦٣٥م.وقد علق العثمانيون على هذه الحملة آمالا كبيرة في استعادة سيطرتهم على اليمن وبالتالي المحافظة على هيبة الدولة. ويمكن لنا أن نجمل أسباب إرسال العثمانيين لهذه الحملة فيما يلي

١- تردي الأوضاع في اليمن للحد الذي يهدد الوجود العثماني بها .
٢- أهمية اليمن بالنسبة للإستراتيجية العثمانية في الدفاع عن الأماكن المقدسة ،ومواجهة البرتغاليين في البحار الشرقية.
٣- المحافظة على هيبة الدولة.

فما أن وصلت أخبار تمرد المطهر بن شرف الدين إلى مسامع السلطان سليم الثاني (٩٧٤-٩٨٢هـ/١٥٦٦-١٥٧٤م) حتى اصدر أوامره لوالي الشام مصطفى باشا اللالا ،ليعد حملة قوية يناط بها أمر القضاء على التمرد في اليمن. وقد منح السلطان والي الشام صلاحيات كبيرة لاتخاذ ما يراه مناسبا في اليمن من عزل وتثبيت لمن كان على رأس الولاية هناك في الوقت ذاته أصدر

السلطان سليم الثاني فرمانا يقضي بتعيين عثمان باشا واليا على اليمن ،بعدما وردت للأستانة أخبار تفيد بتقاعس حسن باشا عن نصرة الحامية العثمانية في تعز،علاوة على سوء تصرفه المالي في زبيد.
حملت هذه الحملة اسم قائدها الوزير سنان باشا والي مصر أثناء الإعداد لإرسال الحملة ٩٧٥-٩٨٠هـ/١٥٦٨-١٥٧٢م. وقد أبدى سنان باشا رغبته في قيادة الحملة ، في الوقت الذي حامت الشكوك حول إمكانات مصطفى اللالا والي الشام وقائد الحملة المكلف من قبل السلطان سليم الثاني .وكان اللالا معلما للسلطان سليم الثاني ومحل ثقته بيد أن خبراته القيادية والعسكرية لا تتوائم وهكذا مهمة. وقد استغرق اللالا فترة طويلة في الإعداد للحملة ،استغلها اعداؤه لإتهامه لدى السلطان بعدم الكفاءة العسكرية،وترتب على ذلك عزله وتعيين سنان باشا قائدا على هذه الحملة.وأعطي صلاحية كبيرة كسابقه مع منحه لقب وزير . وكان اللالا قبل عزله عن قيادة الحملة قد ساعد على إرسال عثمان باشا على رأس قوة كبيرة قدرها ثلاثة آلاف جندي،في سبعة عشر سفينة ،تمكنت هذه القوات من السيطرة على تعز ، ومحاصر حاميتها .
اختلفت المصادر التي بين ايدينا حول عدد جند هذه الحملة ،فقد أوصلها النهروالي إلى ما يقرب من سبعين ألف جندي ،ذهبت إحدى الدراسات الحديثة أن تعداد الجند لا يتجاوز أربعة عشر ألف جندي.وصلت الحملة إلى جيزان في ٩٧٦هـ/١٥٦٩م ،وعفا سنان باشا عن حسن باشا حاكم زبيد بعد أن أعتذر عما فعله من أخطاء، ليستعمله لاحقا في حربه مع المطهر بن شرف الدين. تجدر الإشارة أنه حال وصول القوات العثمانية إلى تهامة اليمن سارع بعضا من شيوخ القبائل،وأمراء المناطق إلى إعلان تبعيتهم للعثمانيين ،مما سهل على سنان باشا امر استعادت تهامة دون عناء. ويمكن لنا تقسيم سير الحملة الى ثلاثة مراحل :

- المرحلة الأولى وتمت فيها السيطرة على تهامة ومناطق الجنوب في تعز ،وعدن،بسهولة ويسر
- المرحلة الثانية وهي التي تمت فيها السيطرة على منطقة وسط الهضبة حتى صنعاء شمالا،وقد لاقت الحملة بعض الصعوبات جراء السير بجيش ثقيل الحركة في مناطق تتخللها الوديان ،والمرتفعات الجبلية.
- المرحلة الثالثة وهي التي تمت فيها السيطرة على منطقة ثلا مما يعني الدخول إلى مناطق سيطرة المطهر بن شرف الدين ،وقد حقق فيها سنان باشا نجاحا نسبيا إذ اكتفى بتوقيع صلح مع المطهر،واتخاذ حاميات عثمانية بتلك المناطق .

غادر سنان باشا اليمن عام ٩٧٨هـ ١٥٧١م بعد سنتين من القتال تمكن خلالها من السيطرة على معظم المرتفعات الجبلية،بيد أنه لم يتمكن من استئصال المطهر بن شرف الدين عن مناطقه ،بل تضمن الصلح بين الطرفين ليحافظ المطهر على ممتلكاته في ثلا ،مع سماحه لاتخاذ العثمانيين حامية فيها ، وأن يقر المطهر السيادة العثمانية على اليمن وأن يدفع مبلغا سنويا للدولة.

عمل سنان باشا على كسب ثقة اليمنيين ،وتحسين الصورة الذهنية للحكم العثماني لدى اليمنيين،لذا حرص ابان حروبه على تجنب الإضرار بالأهالي قدر المستطاع ،كما حرص على الوفاء بالعهود التي كان يقطعها على نفسه. وعمل بعد إتمام حروبه قبل مغادرته لليمن على تنظيم شئون اليمن إداريا، حيث أمر بإجراء إحصاء للولاية لمعرفة مساحة أراضيها المزروعة ، وعدد الأشجار والنخيل المثمرة بها ،إضافة إلى رصد أنشطتها التجارية،كما عمد إلى تنظيم أسواقها بوضع مراقبين لمراقبة المكاييل والأوزان.

وقد اكمل من جاء بعده من الولاة خطواته هذه حيث اهتم بهرام باشا بالمرافق العامة فأصلح الطرقات ،وعمر المساجد وفرشها . من جهة أخرى واصل خطوات سنان باشا الحربية والسياسية ،فعلى حين جدد صلحه مع المطهر وتهادن معه لدرجة عرضه عليه إرسال مساعدات لكبح تمرد من إحدى القبائل على المطهر في المناطق الشمالية، أسرف في استعمال القوة في

الجهات الجنوبية والتهامية لتعزيز مكانة العثمانيين .فقام بتصفية كل من حامت حوله شبهة مناصرة تمرد المطهر بن شرف الدين من سكان المناطق الجنوبية لجعلهم عبرة لمن تسول له نفسه الخروج على الحكم العثماني.كما سعى لنزع سلاح القبائل اليمنية حتى لا تعاود الثورة ، وانتهج كل وسائل العنف المتاح لديه لتحقيق هذا الغرض.حتى أنه كان يقتل الناس بشبهة المشاركة في التمرد ،دون تحري أو تحقق. كما قرب إليه بعض الأمراء الزيديين من المناطق الشمالية وخلع عليهم الرتب ، لشق الصف الزيدي ، وإبعاد شبح ائتلافا في جبهة موحدة ضد العثمانيين ،وقد نجحت هذه نجاحا كبيرا.

ويعتبر عهد الوالي حسن باشا٩٨٨-١٠١٣هـ/١٥٨١-١٦٠٤م واسطة عقد الولاة العثمانيين في اليمن، فقد تجاوزت مدة ولايته العشرين عاما ،الأمر الذي أتاح له القدرة على فهم دقائق الأمور في المجتمع اليمن وبالتالي التعامل معها على أكمل الوجوه .،فاهتم بعمل كثير من الإصلاحات العمرانية في اليمن،كبناء المساجد ،والحمامات العامة وإصلاح الطرقات ،وبناء بعض السماسر عليها. وقد كان حسن إدارته لليمن محل تقدير السلطان العثماني مراد الثالث (٩٨٢-١٠٠٣هـ/١٥٧٤-١٥٩٥م) حين رقاه إلى مرتبة وزير في العام ٩٩٣هـ/١٥٨٥م.اشتهر حسن باشا في اليمن بحزمه وشدته وعدالته ،وقد اعتمد اعتمادا كبيرا على نائبه سنان باشا الكيخيا في قيادة الجيوش،وبسط السيطرة العثمانية على كافة مناطق اليمن. ومما يؤخذ على هذا الوالي تغاضيه عن العنف الذي كان يمارسه نائبه مع بعض اليمنيين . وعزل حسن باشا ليخلفه نائبه سنان باشا الكيخيا على ولاية اليمن بتوصية من حسن باشا. وقد استمر سنان باشا في استخدام الشدة مع الأهالي ،فضلا عن قيامه ببعض الإصلاحات العمرانية على غرار ما عهد في عهد حسن باشا ، فقد أولى سنان باشا الكيخيا العناية الفائقة بالأوقاف الخيرية،وخصص لها موظفا خاصا سمي بناظر الوقف ،واختاره من المواطنين اليمنيين،مع تخصيص مبنىً خاص لحفظ أموال الوقف.توفي سنان باشا في نفس العام الذي عزل فيه عن ولاية اليمن ، حيث وافته المنية قبل مغادرته ميناء المخا عام ١٠١٦هـ/١٦٠٧م.

تولى جعفر باشا (١٠١٦-١٠٢١هـ/١٦٠٧-١٦١٢م)،وقد امتدت فترة ولايته إلى عام ١٠٢٥هـ/١٦١٦م،نظرا لوفاة الوالي البديل إبراهيم باشا حال وصوله اليمن. وقد اتصف بعدالته ،وسعة علمه ،مما جعله محل رضا اليمنيين بصفة عامة والعلماء الدينيين بصفة خاصة.

خلفه في الولاية محمد باشا الذي اتصف أيضا بالعدالة وحرصه على إجراء الكثير من الإصلاحات العمرانية.فعمرت المساجد،وفرشت بالمفارش ،وبناء الحمامات العامة،وحفر الأبار لتوفير المياه للأهالي،كما زاد عدد جمال المحمل اليمني ،وتبعا لذلك ازدادت كمية الأطعمة المخصصة لذلك ،ولعل أهم ما ينسب إليه إنشاء ديوان للمظالم للنظر في شكوى الأهالي.

تولى الوالي احمد فضلي باشا أمر اليمن عام ١٠٣١هـ/١٦٢١م الذي لم يدم عهد ولايته لأكثر من ثلاث سنوات حيث عزل عام ١٠٣٣هـ/١٦٢٤م،ليخلفه الوالي حيدر باشا الذي يعد أحد أسوأ الولاة الذين تولوا أمر اليمن،فقد شُغل هذا الوالي بملذاته عن الاهتمام بأمور الولاية،الأمر الذي عزز من حظوظ انتصار الثورة اليمنية في عهد الإمام محمد بن القاسم .

آل أمر ولاية اليمن أخيرا إلى الوالي احمد قانصوة باشا ١٠٣٩هـ/١٦٣٠م،وكانت الثورة اليمنية قد احتدم أوارها في عهد الإمام محمد بن القاسم . حاول احمد قانصوة أن يبقي سيطرة العثمانيين على سواحل اليمن ،بيد أنه استسلم تحت ضغط قوات الإمام محمد ،وغادر اليمن عام ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م ،لينتهي في عهده حكم العثمانيين الأول لليمن (٩٤٥-١٠٤٥هـ/١٥٣٨-١٦٣٥م).

ثورة الإمام القاسم بن محمد

يعتبر الإمام القاسم بن محمد المؤسس الفعلي لحكم الأسرة القاسمية التي استمر حكمها حتى أطاحت ثورة ١٩٦٢م بحكم الأئمة الزيديون في اليمن .ويد الإمام القاسم بم محمد من أهم الشخصيات اليمنية التي ظهرت على مسرح الأحداث في بدايات القرن السابع عشر الميلادي ،نظرا لما يتمتع به من إمكانات شخصية فكرية ، وقيادية مكنته من التمرد على العثمانيين ، وثبيت مبدأ الخروج عليهم حتى تكلل ذلك الخروج بالنجاح على يد ابنه الإمام محمد بن القاسم . ويعود نسبه كمعظم أئمة اليمن إلى الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

ولد الإمام القاسم عام ٩٦٧هـ/١٥٥٩م بمنطقة الشاهل من بلاد الشرف الأسفل في بيت علم وتقوى وأخذ العلم عن كبار علماء المذهب الزيدي،واتصل بالإمام الحسن بن علي حتى نفي الأخير إلى الأستانة،يعتبره بعض مؤرخي الزيدية مجددا للمذهب الزيدي. وقع عليه اختيار أهل الحل والعقد في عصره ليكون إماما للزيديين بعد نفي الإمام الحسن بن علي. وكان ذلك في أواخر عهد الوالي حسن باشا .تردد الإمام القاسم كثيرا في قبول دعوة الإمامة . وقد برر تردده ذلك بقوله كما أورد الجرموزي " كانت الإمامة ما تعرض على فكري لما أرى من شرارة الخلق وقوة سلطان الترك على الأرض".

بدأ الإمام القاسم حياته العملية بدعوة الأهالي لمناصرته وتأليب القبائل على العثمانيين من مسجد داؤود بصنعاء،وظل لسنوات طويلة يتنقل بين أقاليم المنطقة الشمالية من اليمن يهاجم مواقعا للعثمانيين مع القليل ممن ناصره من أبناء القبائل الزيدية .

أعلن الإمام القاسم عن إمامته علنا في ١٠٠٦هـ /١٥٩٧-٨م في جبل قارة بإقليم الشرف (جنوب صعدة) بعد أن ناصره بعض أهلها. ، وكان مناصرو الإمام قد نصحوه بإعلان دعوته من بلاد سنحان لمناعتها الطبيعة وبعدها عن متناول العثمانيين ، لكن شيخ سنحان تردد في قبول ذلك خشية من بطش العثمانيين ، ونصح الإمام بإعلان دعوته من جبل قارة .

اعتمد الإمام في بث دعوته بين القبائل على إرسال الرسائل المطولة لشيوخها ،فكانت هذه الرسائل تحمل تعاليم دعوته في ذات الوقت الذي تشير فيه إلى فساد الحكم العثماني في اليمن. ويمكننا أن نتعرف على فحوى إحدى هذه الرسائل مما أورده كاتب سيرته (الجرموزي حيث نسب اليه ما يلي : " اما بعد فإننا نحمد الله الذي لا اله إلا هو ،إنا ندعوكم إلى جهاد اعداء الله الذين ظلموا العباد وأظهروا في الأرض الفساد،وشربوا الخمور ،ونكحوا الذكور ،واستباحوا دماء المسلمين المحترمينمن المؤمنين،فقتلوا الأطفال والنساء،ومن لا يحمل سلاحا من الضعفاء والمساكين،وانتم تعلمون ذلك ولا تجهلون".

لاقت دعوة الإمام القاسم قبولا لدى كثير من الأهالي ،فهي تعبير صادق عما يجول في نفوسهم من رفض لأسلوب الحكم العثماني في اليمن ،بيد أن خشيتهم من بطش العثمانيين كان سببا رئيسا في إحجامهم عن نصرة الإمام.

علم العثمانيون بدعوة الإمام القاسم عن طريق الأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر بن شرف الدين . فسير له الوالي حسن باشا بعض القوات التي هاجم مناطق وجود الإمام بالأهنوم ،مما دفع الإمام للانتقال إلى منطقة قبائل ذو محمد ،وذو حسين ببرط المرتفعة في المناطق الشرقية من اليمن، ليكون بمأمن من أيدي العثمانيين ، بيد أن هذه القبائل سرعان ما طالبت الإمام عام ١٠٠٨هـ/١٥٩٩ /١٦٠٠م بالرحيل عن منطقتهم ، خشية من تعسف القائد العثماني سنان باشا الكيخيا ، ورغبة في عطايا العثمانيين المالية.وظل الإمام يتنقل بين المناطق الشمالية هربا من العثمانيين وأعوانهم من أمراء الزيديين حتى استقر به المقام أخيرا مع قليل من أعوانه في الأهنوم مرة أخرى ،واتخذها ملجأ له.

اتفقت معظم المراجع التي دونت سيرة الإمام القاسم بن محمد على اعتبار الحرب بين الإمام القاسم والأمراء الزيديين المدعومين من الوالي العثماني حسن باشا- مثل عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر بن شرف الدين ،ومطهر بن شويع ،وعبد الله المعافا في المناطق الشمالية ،بداية المرحلة الأولى من مراحل الصراع بين العثمانيين والإمام.وقد تمكن حسن باشا في نهاية هذه المرحلة -بعد حروب دامت قرابة خمسة أعوام كان فيها انكسارات وانتصارات عدة للإمام وأتباعه- من هزيمة قوات الإمام واستسلام ابنه محمد بن القاسم في حصن شهارة للعثمانيين.

ويمكن لنا أن نحدد بدأ هذه المرحلة ببدأ إعلان دعوة الإمام من جبل قارة عام ١٠٠٦هـ/١٥٩٧م،وأن نحدد منتهاها حين خروج الإمام من شهارة إلى برط عام١٠١٠هـ/١٦٠٢م.

وقد تميزت هذه المرحلة بما يلي:

- نجاح الإمام في بسط نفوذه على معظم الحصون الممتدة من صعدة شمالا إلى صنعاء جنوبا باستثناء بعض الحصون الواقعة بين هاتين المنطقتين مثل حصن كوكبان ،والطويلة ،وذي مرمر إضافة إلى مدينتي صعدة وصنعاء لم تقعا تحت سيطرة قوات الإمام ،وإن كانت هذه القوات قد حاصرتهما عدة مرات خلال هذه المرحلة.
- تحالف بعض الأمراء الزيديين مع العثمانيين للقضاء على دعوة الإمام ،إما حسدا للإمام على دعوته ،او حمايتهم لمصالح والامتيازات التي تحصلوا عليها في ظل الهيمنة العثمانية على اليمن .
- تردد كثير من القبائل في دعم الإمام القاسم خشية من بطش العثمانيين.
- مبالغة العثمانيين في التنكيل بأتباع الإمام من الأسرى والتخلص منهم بطرق وحشية كما حدث مع عم الإمام السيد عامر بن علي بن محمد حيث سلخ جلده وهو حي،كذلك الحال مع السيد العياني الذي كان يتنقل بين شهارة وصنعاء محرضا الهالي لمناصرة افمام حيث سلخ جلده وهو حي نوغير هما كثير.
- استعانة العثمانيين بقوات إضافية وردت لهم من الحبشة بقيادة علي باشا للمساعدة في حرب الإمام ، مما يدل على عظم التأييد لهذا التمرد ،وخشية العثمانيين من تطوره.
- تذبذب مواقف بعض الأمراء الزيديين في مواقفهم وتنقلهم في ولانهم بين الإمام والعثمانيين،مما يدل على أن المصلحة الذاتية كانت تعلوا لديهم على أي اعتبار آخر.
- انتهاج الإمام لأسلوب الحرب الخاطفة تجاه العثمانيين ،والعمل على تحديد وفرض ميادين الحروب معهم ،والعمل على منع العثمانيين من بناء تحصيناتهم قرب مواقعه .
- البس الإمام قتاله للعثمانيين لبوسا دينيا بأن جعل قتل العثمانيين واعوانهم على أي حال فرضا على القادر عليه عمل ،و حث أعوانه على قتل وتتبع العثمانيين أنى وجدوهم ولو خفية،مما يعني انه اقر مبدأ ما يعرف في عصرنا بالتصفية الجسدية لأعدائه أنى وجدوا ،ونستدل على ذلك بقول الإمام"فإن الله اوجب عليكم قتل هؤلاء الأتراك وأعوانهم من العرب على أي حال ولو خفية في الطرقات ،والمساجد والبيوت،ومن ترك ذلك وهو يقدر عليه فهو عند الله من الهالكين"
- خروج الإمام سالما من شهارة ووصله إلى برط اتخاذه هذه البلدة ملجأ له.
- مساعدة كثير من مشايخ القبائل خفية الإمام القاسم سواء في حربه للعثمانيين ،أو في مساعدته عن الاختباء عن أعينهم عندما أراد الخروج من شهارة إلى برط.

المرحلة الثانية من مراحل حرب الإمام للعثمانيين:-

ظل الإمام في برط يجمع الجموع لبدأ حربه مرة اخرى مع العثمانيين . وكان سنان باشا الكيخيا المعروف بشدته المتناهية قد اصبح واليا على اليمن خلفا لحسن باشا عام ١٩١٣هـ/١٦٠٥م.حاول سنان باشا ابرام صلح مع الإمام يبقيه حيث شاء من اليمن مع ضمان كفايته ماليا هو وأولاده ،بيد

هذا الإتفاق قوبل بالرفض لأن الإمام القاسم بن محمد اشترط اقطاعه عدة اقاليم : شهارة ونواحيها،ووادعة،وبلاد خولان،وجبل رازح،وأن يكون الصلح لسنيين محددة.مما رفضه الوالي سنان باشا الكيخيا ،و هدد الإمام بقتل ما تحت يديه من السرى من ابنء الإمام. فجاء رد الإمام على التهديد حسما وقويا حينما ارسل لسنان باشا الكيخيا"أما من عندكم من المأسورين فافعلوا بهم ما بدا لكم تبعا ،واقسم بالله لأبلغن في حربكم ونكالكم كل مبلغ،ولأروغن لكم روغان الثعلب ولأثبن عليكم وثوب الأسد" .تبعا لذلك التصعيد في الواقف طالب بعض أهالي برط الإمام القاسم بالخروج منها خشية من انتقام سنان باشا منهم لإيوائهم له، فخرج الإمام من برط بعد أن أمضى بها ما يقرب من سنتين ، وكان أمير صعدة العثماني قد وصل إلى برط في وقت لاحق لإلقاء القبض على الإمام القاسم ، لكن الإمام سبقه بالخروج منها.

تشير بعض المصادر أن الإمام القاسم قد فكر بمغادرة اليمن إلى البصرة بعد أن ضاقت في وجهه السبل ،خاصة بعد أن شدد سنان باشا الكيخيا من غاراته على من ناصر الإمام في مناطق الحيمة ،حراز وغيرهما.

توجه الإمام القاسم إلى مرتفعات بلاد سفيان،ومنها إلى بلاد خيار بني صريم في الشرق ومنها إلى شاطب ومن ثم وادعة ، بيد أن الأهالي امتنعوا عن إظهار نصرتهم له خشية من العثمانيين،بل أن أهالي وادعة ،رموه بالبنادق بعد وصوله إلى منطقة المصنعة ،في محاولة منهم لثنائه عن الدخول إليها.وكان العثمانيون قد جدوا في طلب افمام فرصدوا العيون في كل الطرقات وشنوا الغارات المتتابعة على المناطق التي قد يكون بها الإمام كما أنه أخذوا الرهائن المثلثة (رجل وأمرأة وطفل) من القبائل لضمان ولاءها لهم.

نجح الإمام في شراء ولاء بلدة العفيرة وهي اشد ارتفاعا من وادعة ببعض الموال ،فوجد في هذه المنطقة مستقرا مؤقتا له.وانضم ما يقرب من ألف رجل من وادعة للإمام،ثم ناصر بقية أهالي وادعة الإمام عام ١٠١٣/١٦٠٦م.

تمكن أهالي وادعة من صد الهجوم الذي قام به عبد الله بن المعافا باسم العثمانيين ،وتمكنوا من هزيمته شر هزيمة ،وكانت هذه الهزيمة :ي التي أعلنت بدأ المرحلة الثانية فعليا.من الجدير بالذكر أن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر بن شرف الدين حاكم حجة ، عاد ووالى الإمام القاسم بن محمد بعد أن ساءت العلاقات بينه وبين الوالي العثماني سنان باشا الكيخيا.شد هذا الدعم من عبد الرحيم من عضد الإمام نظير ما يتمتع به عبد الرحيم من ثراء ومن دعم قبلي.

أمر عبد الرحيم أتباعه بالدعاء للإمام في المناطق التابعة له،وبادله الإمام الدعم بأن أمر أتباعه في كافة الأقاليم بالوقوف مع عبد الرحيم. وأعلن الإمام الحرب ثانية على العثمانيين.شنت قوات عبد الرحيم عدد من الحملات الناجحة على بعض المناطق الشمالية التي يتبع أمراؤها العثمانيون.دفعت هذه الانتصارات كثير من مشايخ القبائل إعلان تمردهم على العثمانيين. وحقق كثير من هؤلاء المشايخ نجاحات كبيرة في حروبهم ،أضافت لنجاحات الإمام القاسم والأمير عبد الرحيم دعما ماديا ومعنويا كبيرا.وبدا واضحا أن حرب الإمام على العثمانيين قد أصبحت واقعا ملموسا ،وأن نفوذا الإمام عاد قويا إلى مناطق تفوق في مساحتها تلك التي كانت تحت يديه في المرحلة الأولى.وتوجت انتصارات الإمام باستعادة السيطرة على شهارة ، بعد أن راسله عبد الله بن المعافا راغبا تسليم المنطقة له دون عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر بن شرف الدين.وكان من نتائج سقوط شهارة بيد الإمام القاسم تكدر العلاقة الودية بين عبد الرحيم وبين الإمام ،وبد واضحا أن التحالف بين القائدين كان تحالف وقتي نوأن عبد الرحيم كان يبيت النية للغدر بالإمام بعد استتباب الأمر له.

عندما علم سنان بأن قرار عزله عن ولاية اليمن قد صدر اثر أن يعقد صلحا مع الإمام لمدة عام واحد حتى يترك اليمن في هدوء ،وحتى يضمن عم استغلال الإمام أو الأمير عبد الرحيم الفترة الانتقالية بين تنصيب والي وعذل أخر ليسيطرا على صنعاء وما حولها.عقد الصلح بين

الطرفين عام ١٠١٥هـ/١٦٠٨م.حاول الإمام من جهته أن يشمل هذا الصلح الأمير عبد الرحيم غير أن ذلك لم يتم،وساءت العلاقات بين الإمام وبين عبد الرحيم للحد الذي جعل عبد الرحيم يتهم الإمام بالعجز والضعف.

صدر امر السلطان العثماني بعزل سنان باشا الكيخيا عن ولاية اليمن وتعيين جعفر باشا بديلا له عام ١٠١٥هـ/١٦٠٧م.وقد استهل الوالي الجديد جعفر باشا فترة ولايته بالعمل على تهدئة الأمور في اليمن فجدد الصلح الذي عقده سنان باشا الكيخيا مع الإمام القاسم ، حيث أجري الصلح بين الطرفين عام ١٠١٦هـ/١٦٠٨م وكانت مدته عشرة سنوات.وكان الأمير عبد الرحيم قد حاول معاودة التقرب مع العثمانيين ، بيد أنه قام ببعض الفعال التي جعلت جعفر باشا مرتابا من حقيقة نواياه واستأنف القتال بين الطرفين حتى تمكن جعفر باشا من هزيمة عبد الرحيم والقاء القبض عليه وارساله أسيرا للأستانة.

من جهة أخرى تعكس شروط الصلح بين الطرفين الحالة الأمنية التي حظيت بها اليمن في عهد هذا الوالي .فقد اكد جعفر باشا على ما كان سنان باشا الكيخيا قد اقره في هدنة عام ١٠١٥هـ/١٦٠٧م من وضع مناطق(الأهنوم،عذر،وادعة ،ظليمة،العصيمات،شهارة،برط،الحيمة) تحت سيطرة الإمام ،علاوة على ذلك رد جعفر باشا للإمام حصن حميمة السعدا ،وبلادها ،وأطلق سراح من بالسجون من الأسرى اليمنيين بما فيهم أبناء القاسم بن محمد.

وقد تميزت هذه المرحلة في عهد جعفر باشا بما يلي :

- سيادة حالة من الأمن والهدوء النسبي في المناطق الشمالية نمقارنة بما كان عليه الوضع في عهد الكيخياز
- سعي جعفر باشا لتهدئة الأمور في اليمن والتودد للإمام القاسم رغبة في تصفية المتمردين في أقاليم اليمن الأخرى..
- سعي الإمام لنشر دعوته في كافة المناطق الشمالية حكمه في مناطق نفوذه . المرحلة الثالثة من حرب الإمام للعثمانيين : ١٠٢١هـ/١٦١٣م-

وقد تواكبت هذه المرحلة مع عزل جعفر باشا عن ولاية اليمن عام ١٠٢١هـ/١٦١٢م.إذ أن الوالي الجديد ابراهيم باشا الذي وصل اليمن عام ١٠٢٢هـ/١٦١٣م.ولم يمر تسلم الوالي الجديد أمر ولايته بيسر وسهولة ،فقد وصل هذا الوالي قبل رحيل جعفر باشا عن اليمن ،فقام نائب جعفر باشا ويدعى عبد الله شلبي بدعوة الجند لإبراهيم باشا الوالي الجديد .وكان ابراهيم باشا قد استحسن هذا العمل من عبد الله شلبي فعينه حاكما على صنعاء لحين وصوله اليها.وبادر عبد الله شلبي إلى تجهيز الجند لمحاربة الإمام خشية من استغلاله فرصة تأخر وصول الوالي الجديد لصنعاء ومهاجمة مناطق جديدة . ويبدوا أن جعفر باشا قد استنكر هذا الفعل من نائبه في الولاية ،فعزله وعين بدلا منه نائبا أخر . وليزداد الأمر سوءا في الولاية توفي الوالي الجديد بعد وصوله لليمن بشهرين،فنشب الخلاف بين جعفر باشا ،وعبدالله شلبي على الأحقية في إدارة شئون الولاية.وتطور الخلاف للحرب بين الطرفين. وكان طبيعي أن يستغل الإمام هذا الخلاف خاصة ،وأنه أصبح في حل من الصلح الذي عقد مع جعفر باشا بعد وصول الوالي الجديد.

بدأ الإمام حربه الثالثة مع العثمانيين عام ١٠٢٢هـ/١٦١٣م متذرعا بأن ابراهيم باش لم يبادر إلى تجديد الصلح ،وهذا ما يجعل الإمام في حل مما تعهد به لجعفر باشا.استغل الإمام حالة الفوضى السياسية في الإدارة العثمانية، وسحب معظم فصائل الجيش عن المناطق الشمالية إلى صنعاء.فسعى إلى التوسع هناك،وضم مزيدا من الأراضي اليه،كما تمردت عدد من القبائل الشمالية على العثمانيين ،وأعلنت ولائها للامام.ونجح الإمام في تحقيق ذلك حيث ضم اليه مناطق في الشمال كانت خاضعة للأمير عبد الرحيم مثل بلاد الشرف والظاهر وعيال يزيد وغيرها.

بعد استقر الأمر لجعفر باشا ،بقضائه على عبد الله شلبي ومن والاه من الأسراء اليمنيين والعثمانيين،التفت هذا الوالي لحرب الإمام.جهز جعفر باشا جيشا مكون من عشرة الاف جندي تحت قيادة نائبه حيدر باشا وتمكن هذا الجيش من إلحاق هزائم متتابعة بقوات الإمام بعد حروب عنيفة،ولما راى الإمام هذه الهزائم طالب جعفر باشا بعقد صلح على شروط معاهدة ١٠١٦هـ/١٦٠٨م،لكن جعفر باشا رفض هذا الطلب. خسر الإمام كثير من مناطق نفوذه في الأهنوم وغيرها نتيجة لتفرق القبائل عنه خشية من القوات العثمانية ،وقد سهل هذا الأمر للعثمانيين السيطرة على مناطق الإمام الواحدة تلو الأخرى بيسر وسهولة . اضطر الإمام للخروج إلى صعدة حيث رحب به مشايخها .ولما علم العثمانيون بتوجه الى تلك البلاد جعلوا وجهتهم لتلك البلاد لكن الإمام وأبناء المنطقة نجحوا في إلحاق هزيمة كبرى بجيش العثمانيين هناك.يروي لنا الجرموزي ما أعقب هذه الحروب بما يلي : "كان جعفر باشا قد ندم على نقض الصلح فأمر الشيخ ناصر بن علي المحبشي أن يستوقف الإمام في الشام ، ويسعى في الصلح الأول فلم يجبه الإمام".حدثت حروب عدة بين الطرفين بعد موقعة صعدة تراوح فيها النصر والهزيمة بين الطرفين ،وإن بدت في مجملها تسيرلصالح الإمام ،حيث تمكنت قواته من استرجاع كافة المناطق التي أخذها العثمانيون في مستهل هذه الحرب الثالثة.وعندما صدر قرار السلطان العثماني بعزل جعفر باشا عام ١٠٢٥هـ/١٦١٦م،سعى هذا الوالي لعقد صلحا جديدا مع الإمام القاسم لمدة عام حتى لا يترك الولاية في حالة من الفوضى.وتم الصلح بين الطرفين على الشروط التالية:-

- أن يحافظ الإمام على ما تحت يديه من مناطق اقرها صلح عام ١٠٢٢هـ/ ١٦١٢م .
- أن لا ينقل العثمانيون الأسرى من أبناء الإمام إلى الأستانة ويستبقونهم في صنعاء.
- أن يسمح الإمام بخروج الأمير العثماني صفر المحاصر في صعدة من قبل قوات الإمام سالما حتى يبلغ مأمنه.
- أن تكون مدة الصلح عاما واحدا يبدأ من شهر رجب عام ١٠٢٥هـ الى شهر جماد الثاني ١٠٢٦هـ.

جعل هذا الصلح المناطق الشمالية جميعها بيد الإمام القاسم بن محمد عدا منطقتي خمر وكوكبان،اللتان ظلتا بيد العثمانيين ،أما منطقة صعدة فكانت خاضعة للقبائل الموالية للإمام.

غادر جعفر باشا اليمن ووصلها محمد باشا في شهر شعبان ١٠٢٥هـ/١٦١٦م.اتصل به الإمام القاسم وأبدى رغبته في تمديد الصلح لمدة عشر سنوات بين أن محمد باشا رد عليه بالرفض متعللا بعدم معرفته بطبيعة الأمور في اليمن ،مع تأكيد احترامه للصلح الذي عقد مع جعفر باشا.

المرحلة الرابعة من مراحل حرب الإمام للعثمانيين :

انتهت الهدنة بين الطرفين في شهر جماد الثاني عام ١٠٢٦هـ/١٦١٧م،واستأنفت الحروب مجددا.كان مستهل هذه الحروب انتصارات متتابعة للوالي العثماني ،ثم تلا ذلك انكسارات،مكنت الإمام من استعادة ما كان قد فقده ن علاوة على اضافة مناطق جديدة لسلطانه . وبعد ثلاث سنوات من الحروب المتواصلة توصل محمد باشا الى أنه من الصعب تحقيق نصر حاسم على الإمام يعلي من مكانة هذا الوالي لدى السلطان العثماني.فأتباع الإمام أصبحوا أكثر عددا ،وأفضل تسليحا بفضل ما غنموه من القوات العثمانية في بعض المواقع ،علاوة على أن الحالة الاقتصادية للولاية ،والحالة النفسية للجند ،والإدارة العثمانية أملت عليه ضرورة الركون إلى السلم وعقد الصلح مع الإمام. من جهة أخرى كان الإمام بحاجة إلى هذا الصلح لتثبيت أوضاعه في المناطق الشمالية ،علاوة على ما عانته البلاد من تدهور في أحوالها الاقتصادية ،والامنية.وقد ذكر الإمام فيما أورده الجرموزي عن أسباب قبول الإمام للصلح بأن قال:"قلت للإمام أراك تبذل الرغائب في الصلح،وقد عالجوك فيه مع وصول محمد باشا فلم ترض، والآن تطلبه . فقال الإمام :الأولى أني رأيت أن اختم عمري بالجهاد وبتنغيص دنيا الظالمين،ورأيت الأمر تفاقم، وظننت قرب

اجلي خفت أن يحدث الموت بي وأمور الإسلام على ما ترى فلا يتمكن أهله من النصر ويحصل في الإسلام ما يحصلن فرأيت المسارعة حتى ينتزح الأتراك عنا وفرج الله"

عقد الصلح بين الطرفين وكانت مدته عشر سنوات في شهر جمادى الأول عام ١٠٢٨هـ/١٦١٩م،ونص على ما يلي:

- أن يحتفظ الإمام على ما تحت يديه من مناطق
- أن يطلق سراح جميع الأسرى في السجون العثمانية باليمن عدا الحسن بن الإمام لأن هذا يتطلب أخذ موافقة السلطان العثماني عليه.،وأن يطلق الإمام من عنده من أسرى العثمانيين.

جدير بالذكر أن الوالي محمد باشا كان قد عامل الحسن بن القاسم في أسره معاملة كريمة حيث اسكنه في الطبقة العليا من الدار الحمراء بصنعاء ،علاوة على فك قيوده والسماح له بالخروج مع بعض الحرس من حين لاخر ،كما سمح لمن اراد زيارته بفعل ذلك ،وكان يفعل ذلك استرضاء للإمام واعترافا بمكانته ومكانة ابنه نعند جموع القبائل الزيدية.

أطلق العثمانيون من سجونهم ما يقرب من مائتين وأربعين رجلا من أتباع الإمام، وأطلق الإمام ما يقرب من أربعمائة أسير من العثمانيين،بعد أن كساهم ،وزودهم بما يعينهم للوصول إلى مأمنهم.وانتقل الإمام من منطقة وادعة إلى شهارة ،وهدأت الأحوال بين الطرفين إلى أن وافت المنية الإمام القاسم بن محمد عام ١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م. وبوفاة الإمام القاسم تنتهي المرحلة الرابعة من مراحل حربه مع العثمانيين.

وبنظرة تحليلية إلى حروب الإمام هذه نرى أن الإمام قد نجح في تحقيق أهدافه على الرغم من صعوبة الظروف التي تولى فيها الإمامة،فالحكم العثماني في اليمن كان في أوج قوته إبان عهد الوالي حسن باشا ،وسنان باشا الكيخيا،وهذا ما يفسر لنا سبب تراجع انتصاراته في المرحلة وانعزاله في مرتفعات برط حتى أنه - كما تذكر بعض المصادر - فكر في الخروج من اليمن إلى البصرة. لكن هذه القوة لم تتمكن من استئصال جذوة التمرد عند الإمام بصفة خاصة والأئمة الزيديين على وجه العموم اليمن . وقد أظهرت لنا حروب الإمام حقيقة ولاءات القبائل اليمنية،فهي وإن كانت تميل بعاطفتها نحو الإمام ودعوته ،إلى أنها تحت ضغط البطش العثماني ،واستجابة للإغراء المالي كانوا يتخلون عن هذه الولاءات،حتى أن قبيلة وادعة هدده بالسلاح لترك مناطقها.كما أظهرت لنا هذه الحروب أن أماكن سكنى الزيديين، في المناطق الجبلية إضافة إلى تعاليم المذهب الزيدي الذي يحث على الخروج على الحاكم الجائر، كان عاملا أساس في جعل الأئمة الزيديين قادة طبيعيون للتمرد على الحكم العثماني . يقودهم إلى ذلك حرصهم على الاحتفاظ بمكانتهم وامتيازاتهم في المناطق الزيدية باليمن.ولا يغرب عن ذهننا أن سوء الحكم العثماني في اليمن واهتمام معظم الولاية تحقيق مصالحه الخاصة دون مصلحة الولاية ،أو مصلحة الدولة العليا كان محركا لليمنيين على اختلاف مذاهبهم لدعم تمرد الأئمة الزيديين على الحكم العثماني.

الحروب في عهد الإمام محمد بن القاسم :(١٠٢٩-١٠٤٥هـ/١٦٢٠-١٦٣٥م)

بويع الإمام محمد بن القاسم بالإمامة بعد وفاة والده،وتلقب بالمؤيد،وراسل الوالي محمد باشا،واخبره بتوليه الإمامة بعد والده،وأنه حريصا على المضي في الصلح الذي حدث مع والديه،فرد محمد باشا بالموافقة على استمرار الصلح. استمر الهدوء النسبي قرابة ثماني سنوات بين العثمانيين والإمام محمد ، طوال عهد محمد باشا.

استؤنفت الحروب مرة أخرى عام١٠٣٥هـ/١٦٣٥م عندما تولى حيدر باشا ولاية اليمن، حيث نقض الصلح قبل انقضاء مدته بسنتين لأن أحد كبار العلماء من أتباع الإمام قتل في صنعاء بحجة أنه كان يدعوا للإمام ويطالب الأهالي بمبايعة الإمام،وطالب الإمام محمد ، حيدر باشا عبر

مكاتبات مطولة تسليم قاتل هذا الفقيه لمعاقبته أو لدفع الدية.وأذكى شيوخ القبائل نار الحرب بين الطرفين بضمان ولائهم للإمام إن هو حارب العثمانيين بإرسالهم الرهائن للإمام.

تمكن الإمام خلال عامين من بدأ الحروب من السيطرة على معظم أقاليم اليمن بما في ذلك تعز ،وصنعاء.وانحسر وجود العثمانيين في تهامة اليمن.وقد فشلت محاولات العثمانيين في ترميم أوضاعهم ،واستعادة ما فقدوه باليمن .فقد واجه والي الحبشة فشلا ذريعا حال وصوله إلى ميناء المخا عام ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م، إذ تمكن الحسن بن القاسم من محاصرته بالمخا . كذلك كان مصير حملة قانصوة باشا الفشل على الرغم من تحقيق بعض الانتصارات التي ما لبثت وأن تحولت على هزائم أدت في محصلتها النهائية إلى طلب الصلح مع الإمام المؤيد عام١٠٤٥هـ/١٦٣٥م. وانتهى الحال ببعض الجنود العثمانيين في اليمن الالتحاق بالمؤيد والانضمام إلى جنده.وقد ظل قانصوة باشا في اليمن مقيما عند الحسن بن القاسم إلى أن غادر اليمن بحرا إلى مصر.وطلب أخر القادة العثمانيين الأمير مصطفى الصلح من الحسن بن القاسم على أن يسمح له ومن معه من الجند مغادرة اليمن سالمين فتم لهم ذلك،وكان ذلك أخر عهد العثمانيين بحكم اليمن إبان الفترة الأولى.

نظرة عامة على حكم العثمانيين الأول لليمن:

كان هدف سيطرة العثمانيين على اليمن بالدرجة الاولى هدفا استراتيجيا عسكريا ،وذلك لاتخاذ سواحل اليمن قاعدة أولى للدفاع عن الأماكن المقدسة في الحجاز وحمايتها من الخطر البرتغالي المحدق بها،وقد استتبع هذا الهدف ضرورة استمرار الجيش قويا متأهبا لاستعماله عند الحاجة.وقد انتهج العثمانيون لفرض سلطانهم على اليمن إبان فترة حكمهم الأول سياسة مؤداها القوة والعنف قد شهدت البدايات الأولى لتغلغل العثمانيين داخل اليمن وسيطرتهم على صنعاء اعمال عنف ونهب وقتل،وقف عندها كثير ممن أرخ لهذه الفترة الزمنية ، فقد قتل العثمانيون حال اجتياحهم صنعاء ما يقرب من ألف ومائتين من الأهالي ،كما انتهبت البيوت ،والحرمات ،واستباح الجند صنعاء ثلاثة أيام ، حيث بيعت النساء علانية في السواق ،حتى اضطر بعضهن إلى قتل نفسه خشية الفضيحة والعار ،وذلك قبل أن يكبح ازدمر باشا قائد الجيش جماح جيشه.

إن سياسة القوة هذه أظهرت بجلاء النظرة الاستعلائية التي غالبا ما تحدد علاقة الحاكم بالمحكوم،وقد بدت واضحة في معظم الإدارات العثمانية التي تعاقبت على اليمن.ولعل هذا ما يفسر لنا عدم احترام كثير من ولاة اليمن من العثمانيين للعهود والمواثيق التي يبرمونها مع الأعيان والأمراء المحليين فضلا عن شيوخ القبائل اليمنية.ولعل هذا ما وسم الحكم العثماني الأول لليمن بسمة الغدر ،الذي ظل ملازما لهم طيلة فترة حكمهم الأولى على الرغم من حرص قلة من القادة والولاة على تحسين الصورة الذهنية للعثمانيين عند عامة أهالي اليمن.

وكانت مركزية الحكم سمة بارزة من سمات الحكم العثماني في اليمن .فكانت جل النظم العثمانية تستمد صلاحياتها من السلطان العثماني ذاته. فمن الناحية النظرية كانت الإرادة السنية للسلطان العثماني هي المحرك الأساس لكل فعالية من فعاليات الولاية .وواقع الحال يجعل الوالي العثماني في اليمن نائبا عن السلطان في الولاية ،ونظرا لبعد الولاية عن متابعة السلطان الدقيقة لأفعال الوالي كان الوالي باليمن بمثابة السلطان في ولايته.فكان هو الحاكم الناهي في واقع الأمر ،حيث أن من كان من المفترض أن يكونوا رقباء على الوالي كالمحتسب ،وقاضي القضاة غالبا ما تتحد مصالحهم مع الوالي مما يعزز من تسلط الوالي في ولايته.

كانت السمة العسكرية هي سمة الحكم العثماني بصفة عامة ،فكانت الحكومة والجيش شيئا واحدا ،وقد كان الوالي هو قائد الجيش ،وظل الولاة العثمانيون يقودون جيوشهم في اليمن باستثناء الوالي حسن باشا الذي اناب عنه نائبه سنان باشا الكيخيا .وكانت المهمة الأساسية للإدارة العثمانية زيادة قوة الدولة وتوسيع رقعتها .وتدعيم سيطرتها على الأقاليم بضمان ولائها

الحكم العثماني الأول لليمن:١٥٣٨-١٦٣٥م
أسباب سيطرة العثمانيين المباشرة على اليمن:
عندما سقطت دولة المماليك في مصر على يد السلطان العثماني سليم الأول عام ١٥١٧م،بدت هيمنة العثمانيين المعنوية واضحة على بلدان حوض البحر الأحمر . وقد عزز هذه الهيمنة ما كانت عليه الحكومات المحلية من ضعف شديد جعلها عاجزة عن حماية إماراتها من الأخطار البرتغالية المتزايدة في المنطقة.لذا سارع شريف مكة ،بإرسال مفاتيح الكعبة للسلطان العثماني كناية عن دخوله وإمارته تحت طاعة العثمانيين،كذلك فعل المماليك في اليمن عندما التحق بهم مماليك الحجاز خشية من ثورة أهالي الحجاز عليهم بعد سقوط دولتهم في مصر(١)
استشعر العثمانيون مسؤولياتهم تجاه حماية الأماكن المقدسة في الحجاز خاصة والمسلمين في الهند وجنوب الجزيرة العربية عامة من الأخطار البرتغالية ، فصدر مرسوم السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٨م/٩٤٥هـ لواليه بمصر سليمان باشا الأرنؤوطي ،بتسيير حملة كبيرة لمواجهة البرتغاليين " عليك يا بيك البكوات بمصر سليمان باشا أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه ، بتجهيز حقيبتك وحاجتك ، وإعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله ، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كاف ، فعليك أن تخرج إلى الهند وتستولي وتحافظ على تلك الأجزاء ، فإنك إذا قطعت الطريق وحاصرت السبل المؤدية إلى مكة المكرمة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون، وأزلت رايتهم من البحر".٢
ومما تجدر الإشارة إليه أن البرتغاليين كانوا قد شددوا ضغطهم على الحكام المسلمين في كل من جنوب وشرق الجزيرة العربية علاوة على الممالك الإسلامية بساحل الهند الغربي (المليبار) حتى علت أصوات هؤلاء الحكام طلبا لنجدة العثمانيين .فتوافدت إلى الأستانة رسل كل من كاليكوت عام ١٥٢٧م ،وديو عام ١٥٣٢م ،إضافة إلى سلطنة دلهي عام١٥٣٦م كما وصلت بعثة حاكم كجرات بهادور شاه إلى الأستانة محملة بالهدايا للمسئولين العثمانيين ،والوعود بتحمل نفقة إرسال حملة مكونة من عشرة آلاف جندي عثماني إلى تلك البلاد لمساعدة حكامها في مواجهاتهم للبرتغاليين (٣) . وعندما نمى إلى علم البرتغاليين أمر هذه الاتصالات عمدوا إلى قتل سلطان كجرات بهادر شاه ، وقد أدى هذا الفعل إلى إثارة غضب السلطان سليمان القانوني الذي اقسم للانتقام لهذا الحاكم ،فأمر واليه بمصر لإعداد العدة لتسيير حملة كبيرة للهند.(٤)

حملة الهند (حملة سليمان باشا الخادم)(١٥٣٨م/٩٤٥هـ) :-

- صدرت أوامر السلطان سليمان لواليه في مصر عام ١٥٣١م ببناء وتجهيز سفن من مختلف الأنواع والأحجام ولما تم بناء هذه السفن سارت الحملة في عام ١٥٣٨م/٩٤٥هـ بقيادة سليمان باشا الأرنؤوطي) بهدف رئيس هو إبعاد شبح البرتغاليين عن الأماكن المقدسة في الحجاز.

اعد الخادم عدته بإرسال وفد مكون من ثلاثين شخصا لاستطلاع مواقف حكام كل من مكة المكرمة ،وعدن،والشحر علاوة على المماليك في زبيد ، ولما عادت البعثة من مهمتها، تحرك الخادم بأسطوله الذي تراوح عدد سفنية من ست وستين إلى مائة سفينة (٥) و بلغ عدد جند الحملة عشرين ألف جندي كان منهم سبعة آلاف انكشاري و ثلاثة عشر الف من الجنود البحريين ، إضافة إلى ما يقرب من ألف وخمسمائة متطوع مسيحي من داخل الدولة العثمانية ومن خارجها، مع عدد من المعاقبين بأحكام شرعية ليقوموا بأعمال التجديف في السفن(٦)
وقد تباين موقف حكام الإمارات السابق ذكرها من حملة الخادم . فعلى حين كان موقف شريف مكة وحاكم الشحر ايجابيا ، تلكأ عامر بن داود حاكم الطاهريين في إعطاء إجابة شافية تحدد موقفه من الحملة.
تحرك سليمان باشا الخادم بأسطوله من السويس في ١٣ يونيو سنة ١٥٣٨م/٩٤٥هـ وحال وصوله إلى عدن عمد الخادم إلى الغدر بعامر بن داوؤد الطاهري ،حيث دعاه لوجبة غداء على ظهر إحدى سفنه ،ثم غدر به فقتله مع بعض من وزرائه ، وعلق رأسه على صارية السفينة

بعد أن إطمأن الخادم إن جنوده قد احكموا السيطرة على حامية المدينة. لقد حامت الشبهات حول إتصالات السلطان الظاهري بالبرتغاليين ، لذلك لم يكن هذا الحاكم محل ثقة العثمانيين ، وبيّت الخادم أمر الغدر به حال تمكنه من ذلك(٧) وبعد أن أحكم الخادم سيطرته على عدن في ٢٧ /٧/ ١٥٣٨م/٩٤٥هـ ، ترك بها حامية تقدر بخمسمائة جندي وتوجه إلى ميناء ديو على الساحل الهندي الغربي في ١٩ أغسطس ١٥٣٨م/٩٤٥هـ ، حيث وصل هناك في ٤ سبتمبر سنة ١٥٣٨م/٩٤٥هـ(٨).

ظلت قوات الخادم محاصرة لحصن ديو البرتغالي قرابة عشرين يوما ،حيث تمكنت المدفعية العثمانية خلالها من فتح ثغرات كبيرة في جدار الحصن ، مكبدة البرتغاليين في ذلك الحصن خسائر فادحة تقدر بنحو ألف قتيل (٩)، وعندما قاربت ذخائر العثمانيين على النفاذ ، صدرت أوامر سليمان باشا الخادم برفع الحصار والعودة الى السفن بل ومغادرة ساحل الهند الى اليمن ، وغادرت الحملة السواحل الهندية متجهة إلى الشحر حيث أكد حاكمها بدر بو طويرق ولائه للعثمانيين،وثبته الخادم على حكم الشحر بل جعله حاكما عاما على منطقة تمتد من بوابة عدن حتى حدود ظفار(١٠)بعد ذلك سيطر الخادم المخا وزبيد وما حولهما بعد أن قتل حاكم المماليك النوخذة أحمد (١١) ، وأكمل الخادم السيطرة على ما تبقى من مدن الساحل اليمني كجازان و غيرها ليفرض بذلك سيطرة العثمانيين المباشرة على السواحل اليمنية ، وعاد الأسطول العثماني بعد إنجازه هذه المهمة إلى السويس . أما الخادم فقد وصل إلى الأستانة في ٢٧ فبراير سنة ١٥٣٩ م /٩٤٦هـ بعد تأديته فريضة الحج حيث أستقبل هناك استقبال الأبطال.(١٢)

اسلوب حكم العثمانيين لليمن:١٥٣٨-١٦٣٥م:

أخذ العثمانيون بتنظيم ممتلكاتهم في اليمن بأن أرسل السلطان العثماني مرسومين لتثبيت الأميرين اللذين عينهما الخادم على عدن وزبيد.وكنوع من إظهار النفوذ والسيادة على اليمن أرسل السلطان العثماني رسالة للإمام شرف الدين في اليمن يأمره بإبقاء الأوضاع على ما هي عليه ويأمره ،وسريعا ما تحولت اليمن على إيالة عثمانية خاضعة لما تخضع له الإيالات من تنظيم الإداري .وتبعا لذلك ظهرت في اليمن وظائف عثمانية تقليديه مثل الوالي ،الكتخدا،الدفتردار،والسنجق،والأغوات وغيرهم.وكان أول والي عثماني لليمن هو مصطفى باشا النشار إذ صدر قراره سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤١م.واستمرت ولايته خمس سنوات تميزت بالهدوء النسبي وذلك على الرغم من محاولة البرتغاليين التغلغل داخل البحر الأحمر حيث تمكنت سفنهم من الوصول إلى ميناء الطور بيد أن محاولتهم هذه لم تسفر عن شيء يذكر.وقد عمل النشار من خلال حكمه في اليمن دعم الممالك الإسلامية على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر حيث أرسل لمسلمي الحبشة بعض الدعم العسكري بناء على طلبهم لمحاربة النجاشي ملك الحبشة وحلفاؤه البرتغاليون.وفي عهده حدثت بعض المناوشات بين العثمانيين والبرتغاليين عند مدخل البحر الأحمر، وبحر العرب ،كما حدثت بعض المناوشات بينهم وبين كذا الزيديين في تعز. بعد انقضاء خمس سنوات على ولايته لليمن صدر أمر السلطان بتعيين أويس باشا واليا جديدا لليمن عام ١٥٤٦م.وقد وصل هذا الوالي إلى اليمن مزودا بقوة كبيرة في معداتها وأدواتها الحربية ،ولعل هذا ما يفسر رغبة العثمانيين تحويل اليمن لقاعدة حربية تستخدم في صراعهم مع البرتغاليين.وفي عهد هذا الوالي بدأ العثمانيون توسعهم في المناطق الداخلية لليمن ،مستغلين حالة الخلاف التي نشبت بين الإمام شرف الدين وأبناؤه من جهة و ابنه الأكبر المطهر من جهة اخرى بسبب خلاف على توزيع أجزاء دولة الإمام شرف الدين يحيى على أبنائه. ويمكن لنا أن نجمل أسباب توسع العثمانيين داخل اليمن فيما يلي:

- الخلاف داخل الجبهة الزيدية
- تأليب طائفة الإسماعيليين العثمانيين لمهاجمة ممتلكات الزيديين.
- رغبة العثمانيين في تأمين مواقعهم في سواحل اليمن بالتوسع في الداخل
- إشغال الجند حتى لا ينصرفوا إلى العبث ، وإثارة الفتن
- الخلاف المذهبي

إثر الخلاف الذي حدث بين المطهر ووالده اتصل المطهر بالعثمانيين يدعوهم لمهاجمة مناطق والده،ويبدوا أن العثمانيين كانوا قد بيتوا النية لغزو المناطق الداخلية باليمن فسار الجيش العثماني إلى تعز وذلك لأهمية تعز الإستراتيجية ،ولأن الوالي العثماني أراد أن يؤمن خطوط رجعته قبل أن يلقي بجيشه في أتون معركة لا يعرف مصيرها.وبعد مقاومة محدودة سقطت تعز بيد العثمانيين،ومن ثم تقدم الجيش إلى منطقة ذمار إلى الجنوب من صنعاء،وهنا حدثت بالجيش فتنة راح ضحيتها الوالي العثماني أويس باشا حيث قتل عام ١٥٤٧م من قبل أحد بقايا المماليك.تولى قيادة الجيش العثماني احد قادته ويدعى ازدمر حيث أكمل السيطرة على المناطق الداخلية،وحاصر المطهر بن شرف الدين في منطقة ثلا ومن ثم عقد صلحا معه،وكمكافأة له صدر أمر السلطان العثماني سليمان القانوني بتعيينه واليا على اليمن واستمر في ولايته حتى عزل عن ولاية اليمن سنة ١٥٥٥م بناء على طلبه وعين واليا على ولاية الحبش التي استمر بها حتى وفاته سنة ١٥٦٠م.

عين مصطفى النشار للمرة الثانية واليا على اليمن خلفا لأزدمر باشا .ولم تدم فترة حكم هذا الوالي لأكثر من ستة أشهر حيث مرض ومات باليمن . وقد اضطربت أحوال العثمانيين في عهده حين أظهرت بعض عناصر القوات العثمانية تمردها على الوالي كعادة الجند عند خلع والٍ وتعيين آخر. ومما زاد من تردي الأوضاع الأمنية أن مصطفى النشار أساء معاملة حلفاء العثمانيين من الأمراء الزيديين.مما دفع هؤلاء الأمراء لتحين الفرص وإعلان تمردهم على العثمانيين .وعند مرض النشار المرض الذي توفي فيه ،حدث خلاف شديد بين الأمراء العثمانيين كاد أن يؤدي إلى حرب بين صفوف العثمانيين باليمن. حيث عهد مصطفى النشار بإدارة الولاية لدفتر دار الولاية فنازعه الأمر كاشف تعز الذي نجح في تولي مقاليد الأمور بعد أن مال الدفتر دار للسلم وقد .أدت هذه الفتنة إلى زعزعة مكانة الإدارة العثمانية في أعين اليمنيين ،وازداد الأمر سوءا عندما تولى أمر اليمن بعد مصطفى النشار عدد من الولاة الضعاف الذين غلبوا مصالحهم الخاصة على مصلحة الدولة العليا.

كان أول هؤلاء الولاة :مصطفى باشا قرة شاهين الذي دامت ولايته ٤ سنوات،واشتهر بحبه للمال ،وضيق على الجنود في مصروفاتهم ،ولم يؤثر عنه إتيانه لأعمال إصلاحية عامة في اليمن، بل اهتم كثيرا بجمع الأموال التي نقلها معه نقل معه ووظفها لدى بلاط السلطان لتولي أمر ولاية مصر.

جاء بعده في الولاية محمود باشا الذي كان مثالا صارخا للفساد والأنانية ،حيث وظف كل الإمكانات المتاحة لديه لتحقيق أغراضه الخاصة،وقد اشتهر في اليمن على أنه مثال للوالي الغادر الخداع حتى أصبحت وعوده مجالا لضرب الأمثال والتفكه بها عند اليمنيين، كان يقال " وعود محمودية" لكل وعد كاذب. استمرت ولايته اربع سنوات. ثم عزل وانتقل لمصر بناء على طلبة .خلفه في الولاية رضوان باشا وكان شابا يافعا كثير الغرور . عمل رضوان باشا على تتبع المفاسد التي كان يمارسها سابقه في ولاية اليمن وكشفها للسلطان العثماني .في ذات الوقت تجاهل فيه تجديد الصلح مع المطهر بن شرف الدين ،كما كان يفعل سابقوه في الولاية ، بل تعامل بتعالي مبالغ فيه مع مندوب المطهر ،الأمر الذي عجل بتمرد المطهر بن شرف الدين كما سيذكر لاحقا.

ومن المعروف أن والي مصر بحكم منصبه كان العين الناظرة للسلطان العثماني على اليمن ، وقد تمكن محمد باشا بعد توليه ولاية مصر أن يعرف بمساعي رضوان باشا لكشف ممارساته باليمن ،فأخذ يعمل على الكيد لرضوان باشا مستغلا منصبه في ولاية مصر ،وموظفا ما لديه من أموال في بلاط السلطان لتحقيق مآربه ،وقد نجح في إقناع الإدارة العثمانية لتقسيم اليمن إلى ولايتين عثمانيتين وضع رضوان باشا واليا على الشق الشمالي ، الأكثر صعوبة وفقرا واضطرابا سياسيا ،بينما عين والي آخر هو مراد باشا على الشق التهامي ،وقد أدت هذه السياسة إلى نزاعات عدة بين الواليين على الصلاحيات والحدود بين الولايتين.

وقد حدث الصدام المسلح بين العثمانيين والقبائل اليمنية في عهد هذا الوالي ،وخرج المطهر في محصلته النهائية منتصرا.حيث أدت سياسة رضوان باشا المتسرعة والمتعالية إلى نجاح المطهر في كسب تأييد الإسماعيليين ، وكثير من شيوخ القبائل في حربه للعثمانيين.ولم يستطع الواليين العثمانيين بسبب النزاع الذي نشأ بينهما الوقوف في وجه جموع المطهر بن شرف الدين ،التي قواته تسير من نصر إلى نصر،وقد نجحت إحدى القبائل التهامية المؤيدة للمطهر بإلقاء القبض على الوالي مراد باشا وقطع رقبته،وإرسالها إلى المطهر،وإزاء تدهور الأوضاع في اليمن وعجز رضوان باشا السيطرة عليها صدر امر السلطان العثماني بعزل رضوان باشا عن الولاية وتعيين واليا جديدا هو حسن باشا وغدت ولاية اليمن بلا وال فعلي حيث عزل رضوان وقتل مراد باشا ولم يصل بعد الوالي الجديد لليمن ، وبدا أن المطهر هو رجل الساحة في اليمن فعليا.عند وصول حسن باشا لليمن كان المطهر قد سيطر على صنعاء ، وكانت قواته تحاصر تعز ،مما اضطر حسن التحصن في زبيد انتظارا للمساعدات التي تصله من مصر.في هذه الأثناء عملت قوات المطهر على اخراج الحاميات العثمانية من المناطق الشمالية و تعددت ذلك إلى مهاجمتها في المواقع التهامية،حتى حصر وجود العثمانيين في عدن وزبيد وما حولهما فقط.ويمكن لنا أن نجمل أسباب تردي أوضاع العثمانيين في اليمن في هذه الفترة للعوامل التالية:

- **سوء سياسة الولاة التي أدت إلى ضعف أوضاع العثمانيين المالية، والسياسية والاقتصادية.**
- **تقسيم اليمن إلى ولايتين أضعف كلا منهما الآخر.**
- **تذمر اليمنيين من سياسة العثمانيين ،وانتشار روح الثورة بينهم.**
- **قوة شخصية المطهر وحنكته السياسية. ونجاحه في المحافظة على وحدة الجبهة الزيدية.**

حملة سنان باشا ١٥٦٨-١٥٧٠م

أطلق النهروالي على هذه الحملة مسمى الفتح العثماني الثاني بحكم أنها أعادت الحكم العثماني لليمن قويا ،ونجحت في إخماد تمرد المطهر بن شرف الدين. ومع تحفظنا على استعمال كلمة فتح إلا أننا نشاطر النهروالي الرأي بأن هذه الحملة أعادت تمكين العثمانيين لحكم اليمن ليستمر حكمهم الأول فيها إلى عام ١٦٣٥م.وقد علق العثمانيون على هذه الحملة آمالا كبيرة في استعادة سيطرتهم على اليمن وبالتالي المحافظة على هيبة الدولة. ويمكن لنا أن نجمل أسباب إرسال العثمانيين لهذه الحملة فيما يلي

١- تردي الأوضاع في اليمن للحد الذي يهدد الوجود العثماني بها .
٢- أهمية اليمن بالنسبة للإستراتيجية العثمانية في الدفاع عن الأماكن المقدسة ،ومواجهة البرتغاليين في البحار الشرقية.
٣- المحافظة على هيبة الدولة.

فما أن وصلت أخبار تمرد المطهر بن شرف الدين إلى مسامع السلطان سليم الثاني (٩٧٤-٩٨٢هـ/١٥٦٦-١٥٧٤م) حتى اصدر أوامره لوالي الشام مصطفى باشا اللالا ،ليعد حملة قوية يناط بها أمر القضاء على التمرد في اليمن. وقد منح السلطان والي الشام صلاحيات كبيرة لاتخاذ ما يراه مناسبا في اليمن من عزل وتثبيت لمن كان على رأس الولاية هناك في الوقت ذاته أصدر السلطان سليم الثاني فرمانا يقضي بتعيين عثمان باشا واليا على اليمن ،بعدما وردت للأستانة أخبار تفيد بتقاعس حسن باشا عن نصرة الحامية العثمانية في تعز،علاوة على سوء تصرفه المالي في زبيد.

حملت هذه الحملة اسم قائدها الوزير سنان باشا والي مصر أثناء الإعداد لإرسال الحملة ٩٧٥-٩٨٠هـ/١٥٦٨-١٥٧٢م. وقد أبدى سنان باشا رغبته في قيادة الحملة ، في الوقت الذي حامت الشكوك حول إمكانات مصطفى اللالا والي الشام وقائد الحملة المكلف من قبل السلطان سليم الثاني .وكان اللالا معلما للسلطان سليم الثاني ومحل ثقته بيد أن خبراته القيادية والعسكرية لا تتوائم و هكذا مهمة. وقد استغرق اللالا فترة طويلة في الإعداد للحملة ،استغلها أعداؤه لإتهامه لدى السلطان بعدم الكفاءة العسكرية،وترتب على ذلك عزله وتعيين سنان باشا قائدا على هذه الحملة.وأعطي صلاحية كبيرة كسابقه مع منحه لقب وزير . وكان اللالا قبل عزله عن قيادة الحملة قد ساعد على إرسال عثمان باشا على رأس قوة كبيرة قدرها ثلاثة آلاف جندي،في سبعة عشر[1] سفينة ،تمكنت هذه القوات من السيطرة على تعز ، ومحاصر حاميتها .

اختلفت المصادر التي بين ايدينا حول عدد جند هذه الحملة ،فقد أوصلها النهروالي إلى ما يقرب من سبعين ألف جندي ،ذهبت إحدى الدراسات الحديثة أن تعداد الجند لا يتجاوز أربعة عشر ألف جندي.وصلت الحملة إلى جيزان في ٩٧٦هـ/١٥٦٩م ،وعفا سنان باشا عن حسن باشا حاكم زبيد بعد أن أعتذر عما فعله من أخطاء، ليستعمله لاحقا في حربه مع المطهر بن شرف الدين. تجدر الإشارة أنه حال وصول القوات العثمانية إلى تهامة اليمن سارع بعضا من شيوخ القبائل،وأمراء المناطق إلى إعلان تبعيتهم للعثمانيين ،مما سهل على سنان باشا امر استعادت تهامة دون عناء.

ويمكن لنا تقسيم سير الحملة الي ثلاثة مراحل :

- المرحلة الأولى وتمت فيها السيطرة على تهامة ومناطق الجنوب في تعز ،و عدن،بسهولة ويسر
- المرحلة الثانية وهي التي تمت فيها السيطرة على منطقة وسط الهضبة حتى صنعاء شمالا،وقد لاقت الحملة بعض الصعوبات جراء السير بجيش ثقيل الحركة في مناطق تتخللها الوديان ،والمرتفعات الجبلية.
- المرحلة الثالثة وهي التي تمت فيها السيطرة على منطقة ثلا مما يعني الدخول إلى مناطق سيطرة المطهر بن شرف الدين ،وقد حقق فيها سنان باشا نجاحا نسبيا إذ اكتفى بتوقيع صلح مع المطهر ،واتخاذ حاميات عثمانية بتلك المناطق .

غادر سنان باشا اليمن عام ٩٧٨هـ/١٥٧١م بعد سنتين من القتال تمكن خلالها من السيطرة على معظم المرتفعات الجبلية،بيد أنه لم يتمكن من استئصال المطهر بن شرف الدين عن مناطقه ،بل تضمن الصلح بين الطرفين ليحافظ المطهر على ممتلكاته في ثلا ،مع سماحه لاتخاذ العثمانيين حامية فيها ، وأن يقر المطهر السيادة العثمانية على اليمن وأن يدفع مبلغا سنويا للدولة.

عمل سنان باشا على كسب ثقة اليمنيين ،وتحسين الصورة الذهنية للحكم العثماني لدى اليمنيين،لذا حرص إبان حروبه على تجنب الإضرار بالأهالي قدر المستطاع ،كما حرص على الوفاء بالعهود التي كان يقطعها على نفسه. وعمل بعد إتمام حروبه قبل مغادرته لليمن على تنظيم شئون اليمن إداريا، حيث أمر بإجراء إحصاء للولاية لمعرفة مساحة أراضيها المزروعة ، وعدد الأشجار والنخيل المثمرة بها ،إضافة إلى رصد أنشطتها التجارية،كما عمد إلى تنظيم أسواقها بوضع مراقبين لمراقبة المكاييل والأوزان.

وقد اكمل من جاء بعده من الولاة خطواته هذه حيث اهتم بهرام باشا بالمرافق العامة فأصلح الطرقات ،وعمر المساجد وفرشها . من جهة أخرى واصل خطوات سنان باشا الحربية والسياسية ،فعلى حين جدد صلحه مع المطهر وتهادن معه لدرجة عرضه عليه إرسال مساعدات لكبح تمرد من إحدى القبائل على المطهر في المناطق الشمالية، أسرف في استعمال القوة في الجهات الجنوبية والتهامية لتعزيز مكانة العثمانيين .فقام بتصفية كل من حامت حوله شبهة مناصرة تمرد المطهر بن شرف الدين من سكان المناطق الجنوبية لجعلهم عبرة لمن تسول له نفسه الخروج على الحكم العثماني.كما سعى لنزع سلاح القبائل اليمنية حتى لا تعاود الثورة ، وانتهج كل وسائل العنف المتاح لديه لتحقيق هذا الغرض.حتى أنه كان يقتل الناس بشبهة المشاركة في التمرد ،دون تحري أو تحقق. كما قرب إليه بعض الأمراء الزيديين من المناطق الشمالية وخلع عليهم الرتب ، لشق الصف الزيدي ، وإبعاد شبح ائتلافا في جبهة موحدة ضد العثمانيين ،وقد نجحت هذه نجاحا كبيرا.

ويعتبر عهد الوالي حسن باشا (٩٨٨-١٠١٣هـ/١٥٨١-١٦٠٤م واسطة عقد الولاة العثمانيين في اليمن، فقد تجاوزت مدة ولايته العشرين عاما ،الأمر الذي أتاح له القدرة على فهم دقائق الأمور في المجتمع اليمن وبالتالي التعامل معها على أكمل الوجوه .فاهتم بعمل كثير من الإصلاحات العمرانية في اليمن،كبناء المساجد ،والحمامات العامة وإصلاح الطرقات ،وبناء بعض السماسر عليها. وقد كان حسن إدارته لليمن محل تقدير السلطان العثماني مراد الثالث (٩٨٢-١٠٠٣هـ/١٥٧٤-١٥٩٥م) حين رقاه إلى مرتبة وزير في العام ٩٩٣هـ/١٥٨٥م.اشتهر حسن باشا في اليمن بحزمه وشدته وعدالته ،وقد اعتمد اعتمادا كبيرا على نائبه سنان باشا الكيخيا في قيادة الجيوش،وبسط السيطرة العثمانية على كافة مناطق اليمن. ومما يؤخذ على هذا الوالي تغاضيه عن العنف الذي كان يمارسه نائبه مع بعض اليمنيين . وعزل حسن باشا ليخلفه نائبه سنان باشا الكيخيا على ولاية اليمن بتوصية من حسن باشا. وقد استمر سنان باشا في استخدام الشدة مع الأهالي ،فضلا عن قيامه ببعض الإصلاحات العمرانية على غرار ما عهد في عهد حسن باشا ، فقد أولى سنان باشا الكيخيا العناية الفائقة بالأوقاف الخيرية،وخصص لها موظفا خاصا سمي بناظر الوقف ،واختاره من المواطنين اليمنيين،مع تخصيص مبنىً خاص لحفظ أموال الوقف.توفي سنان باشا في نفس العام الذي عزل فيه عن ولاية اليمن ، حيث وافته المنية قبل مغادرته ميناء المخا عام ١٠١٦هـ/١٦٠٧م.

تولى جعفر باشا (١٠١٦-١٠٢١هـ/١٦٠٧-١٦١٢م)،وقد امتدت فترة ولايته إلى عام ١٠٢٥هـ/١٦١٦م،نظرا لوفاة الوالي البديل إبراهيم باشا حال وصوله اليمن. وقد اتصف بعدالته ،وسعة علمه ،مما جعله محل رضا اليمنيين بصفة عامة والعلماء الدينيين بصفة خاصة.

خلفه في الولاية محمد باشا الذي اتصف أيضا بالعدالة وحرصه على إجراء الكثير من الإصلاحات العمرانية.فعمرت المساجد،وفرشت بالمفارش ،وبناء الحمامات العامة،وحفر الآبار لتوفير المياه للأهالي،كما زاد عدد جمال المحمل اليمني ،وتبعا لذلك ازدادت كمية الأطعمة المخصصة لذلك ،ولعل أهم ما ينسب إليه إنشاء ديوان للمظالم للنظر في شكوى الأهالي.

تولى الوالي احمد فضلي باشا أمر اليمن عام ١٠٣١هـ/١٦٢١م الذي لم يدم عهد ولايته لأكثر من ثلاث سنوات حيث عزل عام ١٠٣٣هـ/١٦٢٤م،ليخلفه الوالي حيدر باشا الذي يعد أحد أسوأ الولاة الذين تولوا أمر اليمن،فقد شغل هذا الوالي بملذاته عن الاهتمام بأمور الولاية،الأمر الذي عزز من حظوظ انتصار الثورة اليمنية في عهد الإمام محمد بن القاسم .

آل أمر ولاية اليمن أخيرا إلى الوالي احمد قانصوة باشا ١٠٣٩هـ/١٦٣٠م،وكانت الثورة اليمنية قد احتدم أوارها في عهد الإمام محمد بن القاسم . حاول احمد قانصوة أن يبقي سيطرة العثمانيين على سواحل اليمن ،بيد أنه استسلم تحت ضغط قوات الإمام محمد ،وغادر اليمن عام ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م ،لينتهي في عهده حكم العثمانيين الأول لليمن (٩٤٥-١٠٤٥هـ/١٥٣٨-١٦٣٥م).



ثورة الإمام القاسم بن محمد

يعتبر الإمام القاسم بن محمد المؤسس الفعلي لحكم الأسرة القاسمية التي استمر حكمها حتى أطاحت ثورة ١٩٦٢م بحكم الأئمة الزيديون في اليمن. ويعد الإمام القاسم بم محمد من أهم الشخصيات اليمنية التي ظهرت على مسرح الأحداث في بدايات القرن السابع عشر الميلادي ،نظرا لما يتمتع به من إمكانات شخصية فكرية ، وقيادية مكنته من التمرد على العثمانيين ، وثبيت مبدأ الخروج عليهم حتى تكلل ذلك الخروج بالنجاح على يد ابنه الإمام محمد بن القاسم . ويعود نسبه كمعظم أئمة اليمن إلى الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

ولد الإمام القاسم عام ٩٦٧هـ/١٥٥٩م بمنطقة (الشاهل) من بلاد الشرف الأسفل في بيت علم وتقوى وأخذ العلم عن كبار علماء المذهب الزيدي،واتصل بالإمام الحسن بن علي حتى نفي الأخير إلى الأستانة،يعتبره بعض مؤرخي الزيدية مجددا للمذهب الزيدي. وقع عليه اختيار أهل الحل والعقد في عصره ليكون إماما للزيديين بعد نفي الإمام الحسن بن علي. وكان ذلك في أواخر عهد الوالي حسن باشا .تردد الإمام القاسم كثيرا في قبول دعوة الإمامة . وقد برر تردده ذلك بقوله كما أورد الجرموزي " كانت الإمامة ما تعرض على فكري لما أرى من شرارة الخلق وقوة سلطان الترك على الأرض".

بدأ الإمام القاسم حياته العملية بدعوة الأهالي لمناصرته وتأليب القبائل على العثمانيين من مسجد داؤود بصنعاء،وظل لسنوات طويلة يتنقل بين أقاليم المنطقة الشمالية من اليمن يهاجم مواقعا للعثمانيين مع القليل ممن ناصره من أبناء القبائل الزيدية .

أعلن الإمام القاسم عن إمامته علنا في ١٠٠٦هـ/١٥٩٧-٨م في جبل قارة بإقليم الشرف (جنوب صعدة) بعد أن ناصره بعض أهلها ، وكان مناصرو الإمام قد نصحوه بإعلان دعوته من بلاد سنحان لمناعتها الطبيعة وبعدها عن متناول العثمانيين ، لكن شيخ سنحان تردد في قبول ذلك خشية من بطش العثمانيين ، ونصح الإمام بإعلان دعوته من جبل قارة .

اعتمد الإمام في بث دعوته بين القبائل على إرسال الرسائل المطولة لشيوخها ،فكانت هذه الرسائل تحمل تعاليم دعوته في ذات الوقت الذي تشير فيه إلى فساد الحكم العثماني في اليمن. ويمكننا أن نتعرف على فحوى إحدى هذه الرسائل مما أورده كاتب سيرته (الجرموزي حيث نسب اليه ما يلي : " اما بعد فإننا نحمد الله الذي لا اله إلا هو،إنا ندعوكم إلى جهاد اعداء الله الذين ظلموا العباد وأظهروا في الأرض الفساد،وشربوا الخمور ،ونكحوا الذكور ،واستباحوا دماء المسلمين المحترمينمن المؤمنين،فقتلوا الأطفال والنساء،ومن لا يحمل سلاحا من الضعفاء والمساكين،وانتم تعلمون ذلك ولا تجهلون".

لاقت دعوة الإمام القاسم قبولا لدى كثير من الأهالي ،فهي تعبير صادق عما يجول في نفوسهم من رفض لأسلوب الحكم العثماني في اليمن ،بيد أن خشيتهم من بطش العثمانيين كان سببا رئيسا في إحجامهم عن نصرة الإمام.

علم العثمانيون بدعوة الإمام القاسم عن طريق الأمير عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر بن شرف الدين . فسير له الوالي حسن باشا بعض القوات التي هاجم مناطق وجود الإمام بالأهنوم ،مما دفع الإمام للانتقال إلى منطقة قبائل ذو محمد وذو حسين ببرط المرتفعة في المناطق الشرقية من اليمن، ليكون بمأمن من أيدي العثمانيين ، بيد أن هذه القبائل سرعان ما طالبت الإمام عام ١٠٠٨هـ/١٥٩٩ /١٦٠٠م بالرحيل عن منطقتهم ، خشية من تعسف القائد العثماني سنان باشا الكيخيا ، ورغبة في عطايا العثمانيين المالية.وظل الإمام يتنقل بين المناطق الشمالية هربا من العثمانيين وأعوانهم من أمراء الزيديين حتى استقر به المقام أخيرا مع قليل من أعوانه في الأهنوم مرة أخرى ،واتخذها ملجأ له.

اتفقت معظم المراجع التي دونت سيرة الإمام القاسم بن محمد على اعتبار الحرب بين الإمام القاسم والأمراء الزيديين المدعومين من الوالي العثماني حسن باشا- مثل عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر بن شرف الدين ،ومطهر بن شويع ،وعبد الله المعافا في المناطق الشمالية ،بداية المرحلة الأولى من مراحل الصراع بين العثمانيين والإمام.وقد تمكن حسن باشا في نهاية

هذه المرحلة -بعد حروب دامت قرابة خمسة أعوام كان فيها انكسارات وانتصارات عدة للإمام وأتباعه- من هزيمة قوات الإمام واستسلام ابنه محمد بن القاسم في حصن شهارة للعثمانيين.
ويمكن لنا أن نحدد بدأ هذه المرحلة ببدأ إعلان دعوة الإمام من جبل قارة عام ١٠٠٦هـ/١٥٩٧م،وأن نحدد منتهاها حين خروج الإمام من شهارة إلى برط عام١٠١٠هـ/١٦٠٢م.
وقد تميزت هذه المرحلة بما يلي:

- نجاح الإمام في بسط نفوذه على معظم الحصون الممتدة من صعدة شمالا إلى صنعاء جنوبا باستثناء بعض الحصون الواقعة بين هاتين المنطقتين مثل حصن كوكبان ،والطويلة ،وذي مرمر إضافة إلى مدينتي صعدة وصنعاء لم تقعا تحت سيطرة قوات الإمام ،وإن كانت هذه القوات قد حاصرتهما عدة مرات خلال هذه المرحلة.
- تحالف بعض الأمراء الزيديين مع العثمانيين للقضاء على دعوة الإمام ،إما حسدا للإمام على دعوته ،او حمايتهم لمصالح والامتيازات التي تحصلوا عليها في ظل الهيمنة العثمانية على اليمن .
- تردد كثير من القبائل في دعم الإمام القاسم خشية من بطش العثمانيين.
- مبالغة العثمانيين في التنكيل بأتباع الإمام من الأسرى والتخلص منهم بطرق وحشية كما حدث مع عم الإمام السيد عامر بن علي بن محمد حيث سلخ جلده وهو حي،كذلك الحال مع السيد العياني الذي كان يتنقل بين شهارة وصنعاء محرضا الأهالي لمناصرة الإمام حيث سلخ جلده وهو حي وغيرهما كثير.
- استعانة العثمانيين بقوات إضافية وردت لهم من الحبشة بقيادة علي باشا للمساعدة في حرب الإمام ، مما يدل على عظم التأييد لهذا التمرد ،وخشية العثمانيين من تطوره.
- تذبذب مواقف بعض الأمراء الزيديين في مواقفهم وتنقلهم في ولائهم بين الإمام والعثمانيين،مما يدل على أن المصلحة الذاتية كانت تعلوا لديهم على أي اعتبار آخر.
- انتهاج الإمام لأسلوب الحرب الخاطفة تجاه العثمانيين ،والعمل على تحديد وفرض ميادين الحروب معهم ،والعمل على منع العثمانيين من بناء تحصيناتهم قرب مواقعه.
- البس الإمام قتاله للعثمانيين لبوسا دينيا بأن جعل قتل العثمانيين واعوانهم على أي حال فرضا على القادر عليه عمل ،و حث أعوانه على قتل وتتبع العثمانيين أنى وجدوهم ولو خفية،مما يعني انه اقر مبدأ ما يعرف في عصرنا بالتصفية الجسدية لأعدائه أنى وجدوا ،ونستدل على ذلك بقول الإمام"فإن الله اوجب عليكم قتل هؤلاء الأتراك وأعوانهم من العرب على أي حال ولو خفية في الطرقات ،والمساجد والبيوت،ومن ترك ذلك وهو يقدر عليه فهو عند الله من الهالكين"
- خروج الإمام سالما من شهارة ووصله إلى برط اتخاذه هذه البلدة ملجأ له.
- مساعدة كثير من مشايخ القبائل خفية الإمام القاسم سواء في حربه للعثمانيين ،أو في مساعدته عن الاختباء عن أعينهم عندما أراد الخروج من شهارة إلى برط.

المرحلة الثانية من مراحل حرب الإمام للعثمانيين:-
ظل الإمام في برط يجمع الجموع لبدأ حربه مرة اخرى مع العثمانيين . وكان سنان باشا الكيخيا المعروف بشدته المتناهية قد اصبح واليا على اليمن خلفا لحسن باشا عام ١٠١٣هـ/١٦٠٥م.حاول سنان باشا ابرام صلح مع الإمام يبقيه حيث شاء من اليمن مع ضمان كفايته ماليا هو وأولاده ،بيد هذا الاتفاق قوبل بالرفض لأن الإمام القاسم بن محمد اشترط اقطاعه عدة اقاليم : شهارة ونواحيها،ووادعة،وبلاد خولان،وجبل رازح،وأن يكون الصلح لسنين محددة.مما رفضه الوالي سنان باشا الكيخيا ،وهدد الإمام بقتل ما تحت يديه من الأسرى من ابناء الإمام. فجاء رد الإمام على التهديد حكيما وقويا حينما ارسل لسنان باشا الكيخيا"أما من عندكم من المأسورين فافعلوا بهم ما بدا لكم تبعا ،واقسم بالله لأبلغن في حربكم ونكالكم كل مبلغ،ولأروغن لكم روغان الثعلب

ولأثبن عليكم وثوب الأسد". تبعا لذلك التصعيد في الواقف طالب بعض أهالي برط الإمام القاسم بالخروج منها خشية من انتقام سنان باشا منهم لإيوائهم له، فخرج الإمام من برط بعد أن أمضى بها ما يقرب من سنتين ، وكان أمير صعدة العثماني قد وصل إلى برط في وقت لاحق لإلقاء القبض على الإمام القاسم ، لكن الإمام سبقه بالخروج منها.

تشير بعض المصادر أن الإمام القاسم قد فكر بمغادرة اليمن إلى البصرة بعد أن ضاقت في وجهه السبل ،خاصة بعد أن شدد سنان باشا الكيخيا من غاراته على من ناصر الإمام في مناطق الحيمة ،حراز وغيرهما.

توجه الإمام القاسم إلى مرتفعات بلاد سفيان ومنها إلى بلاد خيار بني صريم في الشرق ومنها إلى شاطب ومن ثم وادعة، بيد أن الأهالي امتنعوا عن إظهار نصرتهم له خشية من العثمانيين،بل أن أهالي وادعة ،رموه بالبنادق بعد وصوله إلى منطقة المصنعة ،في محاولة منهم لثنائه عن الدخول إليها.وكان العثمانيون قد جدوا في طلب الإمام فرصدوا العيون في كل الطرقات وشنوا الغارات المتتابعة على المناطق التي قد يكون بها الإمام كما أنه أخذوا الرهائن المثلثة (رجل وأمرأة وطفل) من القبائل لضمان ولاءها لهم.

نجح الإمام في شراء ولاء بلدة العغيرة وهي أشد ارتفاعا من وادعة ببعض الموال ،فوجد في هذه المنطقة مستقرا مؤقتا له.،وانضم ما يقرب من ألف رجل من وادعة للإمام،ثم ناصر بقية أهالي وادعة الإمام عام ١٠١٣/١٦٠٦م.

تمكن أهالي وادعة من صد الهجوم الذي قام به عبد الله بن المعافا باسم العثمانيين ،وتمكنوا من هزيمته شر هزيمة ،وكانت هذه الهزيمة هي التي أعلنت بدأ المرحلة الثانية فعليا.من الجدير بالذكر أن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر بن شرف الدين حاكم حجة عاد ووالى الإمام القاسم بن محمد بعد أن ساءت العلاقات بينه وبين الوالي العثماني سنان باشا الكيخيا.شد هذا الدعم من عبد الرحيم من عضد الإمام نظير ما يتمتع به عبد الرحيم من ثراء ومن دعم قبلي.

أمر عبد الرحيم أتباعه بالدعاء للإمام في المناطق التابعة له،وبادله الإمام الدعم بأن أمر أتباعه في كافة الأقاليم بالوقوف مع عبد الرحيم. وأعلن الإمام الحرب ثانية على العثمانيين.شنت قوات عبد الرحيم عدد من الحملات الناجحة على بعض المناطق الشمالية التي يتبع أمراؤها العثمانيون.دفعت هذه الانتصارات كثير من مشايخ القبائل إعلان تمردهم على العثمانيين. وحقق كثير من هؤلاء المشايخ نجاحات كبيرة في حروبهم ،أضافت لنجاحات الإمام القاسم والأمير عبد الرحيم دعما ماديا ومعنويا كبيرا.وبدا واضحا أن حرب الإمام على العثمانيين قد أصبحت واقعا ملموسا ،وأن نفوذ الإمام عاد قويا إلى مناطق تفوق في مساحتها تلك التي كانت تحت يديه في المرحلة الأولى.وتوجت انتصارات الإمام باستعادة السيطرة على شهارة بعد أن راسله عبد الله بن المعافا راغبا تسليم المنطقة له دون عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن المطهر بن شرف الدين.وكان من نتائج سقوط شهارة بيد الإمام القاسم تكدر العلاقة الودية بين عبد الرحيم وبين الإمام ،وبد واضحا أن التحالف بين القائدين كان تحالف وقتي نوأن عبد الرحيم كان يبيت النية للغدر بالإمام بعد استتباب الأمر له.

عندما علم سنان بأن قرار عزله عن ولاية اليمن قد صدر آثر أن يعقد صلحا مع الإمام لمدة عام واحد حتى يترك اليمن في هدوء ،وحتى يضمن عدم استغلال الإمام أو الأمير عبد الرحيم الفترة الانتقالية بين تنصيب والي وعذل آخر ليسيطرا على صنعاء وما حولها.عقد الصلح بين الطرفين عام ١٠١٥هـ/١٦٠٨م.حاول الإمام من جهته أن يشمل هذا الصلح الأمير عبد الرحيم غير أن ذلك لم يتم،وساءت العلاقات بين الإمام وبين عبد الرحيم للحد الذي جعل عبد الرحيم يتهم الإمام بالعجز والضعف.

صدر أمر السلطان العثماني بعزل سنان باشا الكيخيا عن ولاية اليمن وتعيين جعفر باشا بديلا له عام ١٠١٥هـ/١٦٠٧م.وقد استهل الوالي الجديد جعفر باشا فترة ولايته بالعمل على تهدئة الأمور في اليمن فجدد الصلح الذي عقده سنان باشا الكيخيا مع الإمام القاسم ، حيث أجري الصلح بين الطرفين عام ١٠١٦هـ/١٦٠٨م وكانت مدته عشرة سنوات.وكان الأمير عبد الرحيم

١٠ سوم

قد حاول معاودة التقرب مع العثمانيين ، بيد أنه قام ببعض الفعال التي جعلت جعفر باشا مرتابا من حقيقة نواياه واستأنف القتال بين الطرفين حتى تمكن جعفر باشا من هزيمة عبد الرحيم وإلقاء القبض عليه وإرساله أسيرا للأستانة.

من جهة أخرى تعكس شروط الصلح بين الطرفين الحالة الأمنية التي حظيت بها اليمن في عهد هذا الوالي .فقد اكد جعفر باشا على ما كان سنان باشا الكيخيا قد اقره في هدنة عام ١٠١٥هـ/١٦٠٧م من وضع مناطق(الأهنوم،عذر،وادعة ،ظليمة،العصيمات،شهارة،برط،الحيمة) تحت سيطرة الإمام ،علاوة على ذلك رد جعفر باشا للإمام حصن حميمة السعدا ،وبلادها ،وأطلق سراح من بالسجون من الأسرى اليمنيين بما فيهم أبناء القاسم بن محمد.

وقد تميزت هذه المرحلة في عهد جعفر باشا بما يلي :

- سيادة حالة من الأمن والهدوء النسبي في المناطق الشمالية نمقارنة بما كان عليه الوضع في عهد الكيخياز
- سعي جعفر باشا لتهدئة الأمور في اليمن والتودد للإمام القاسم رغبة في تصفية المتمردين في أقاليم اليمن الأخرى..
- سعي الإمام لنشر دعوته في كافة المناطق الشمالية حكمه في مناطق نفوذه .

المرحلة الثالثة من حرب الإمام للعثمانيين : ١٠٢١هـ/١٦١٣م.

وقد تواكبت هذه المرحلة مع عزل جعفر باشا عن ولاية اليمن عام ١٠٢١هـ/١٦١٢م.إذ أن الوالي الجديد ابراهيم باشا الذي وصل اليمن عام ١٠٢٢هـ/١٦١٣م.ولم يمر تسلم الوالي الجديد أمر ولايته بيسر وسهولة ،فقد وصل هذا الوالي قبل رحيل جعفر باشا عن اليمن ،فقام نائب جعفر باشا ويدعى عبد الله شلبي بدعوة الجند لإبراهيم باشا الوالي الجديد .وكان إبراهيم باشا قد استحسن هذا العمل من عبد الله شلبي فعينه حاكما على صنعاء لحين وصوله اليها.وبادر عبد الله شلبي إلى تجهيز الجند لمحاربة الإمام خشية من استغلاله فرصة تأخر وصول الوالي الجديد لصنعاء ومهاجمة مناطق جديدة . ويبدوا أن جعفر باشا قد استنكر هذا الفعل من نائبه في الولاية ،فعزله وعين بدلا منه نائبا آخر . ولزداد الأمر سوءا في الولاية توفي الوالي الجديد بعد وصوله لليمن بشهرين،فنشب الخلاف بين جعفر باشا ،وعبدالله شلبي على الأحقية في إدارة شئون الولاية.وتطور الخلاف للحرب بين الطرفين. وكان طبيعي أن يستغل الإمام هذا الخلاف خاصة ،وأنه أصبح في حل من الصلح الذي عقد مع جعفر باشا بعد وصول الوالي الجديد.

بدأ الإمام حربه الثالثة مع العثمانيين عام ١٠٢٢هـ/١٦١٣م متذرعا بأن ابراهيم باشا لم يبادر إلى تجديد الصلح ،وهذا ما يجعل الإمام في حل مما تعهد به لجعفر باشا.استغل الإمام حالة الفوضى السياسية في الإدارة العثمانية، وسحب معظم فصائل الجيش عن المناطق الشمالية إلى صنعاء،فسعى إلى التوسع هناك،وضم مزيدا من الأراضي اليه،كما تمردت عدد من القبائل الشمالية على العثمانيين ،وأعلنت ولائها للإمام.ونجح الإمام في تحقيق ذلك حيث ضم اليه مناطق في الشمال كانت خاضعة للأمير عبد الرحيم مثل بلاد الشرف والظاهر وعيال يزيد وغيرها.

بعد استقر الأمر لجعفر باشا ،بقضائه على عبد الله شلبي ومن والاه من الأمراء اليمنيين والعثمانيين،التفت هذا الوالي لحرب الإمام.جهز جعفر باشا جيشا مكون من عشرة آلاف جندي تحت قيادة نائبه حيدر باشا وتمكن هذا الجيش من إلحاق هزائم متتابعة بقوات الإمام بعد حروب عنيفة،ولما راى الإمام هذه الهزائم طالب جعفر باشا بعقد صلح على شروط معاهدة ١٠١٦هـ/١٦٠٨م،لكن جعفر باشا رفض هذا الطلب. خسر الإمام كثير من مناطق نفوذه في الأهنوم وغيرها نتيجة لتفرق القبائل عنه خشية من القوات العثمانية ،وقد سهل هذا الأمر للعثمانيين السيطرة على مناطق الإمام الواحدة تلو الأخرى بيسر وسهولة . اضطر الإمام للخروج إلى صعدة حيث رحب به مشايخها .ولما علم العثمانيون بتوجهه إلى تلك البلاد جعلوا وجهتهم لتلك البلاد لكن الإمام وأبناء المنطقة نجحوا في إلحاق هزيمة كبرى بجيش العثمانيين هناك.يروي لنا الجرموزي ما أعقب هذه الحروب بما يلي : "كان جعفر باشا قد ندم على نقض

الصلح فأمر الشيخ ناصر بن علي المحبشي أن يستوقف الإمام في الشام ، ويسعى في الصلح الأول فلم يجبه الإمام". حدثت حروب عدة بين الطرفين بعد موقعة صعدة تراوح فيها النصر والهزيمة بين الطرفين ،وإن بدت في مجملها تسير لصالح الإمام ،حيث تمكنت قواته من استرجاع كافة المناطق التي أخذها العثمانيون في مستهل هذه الحرب الثالثة.و عندما صدر قرار السلطان العثماني بعزل جعفر باشا عام ٢٥ ١٠٢٦هـ/١٦١٦م،سعى هذا الوالي لعقد صلحا جديدا مع الإمام القاسم لمدة عام حتى لا يترك الولاية في حالة من الفوضى.وتم الصلح بين الطرفين على الشروط التالية:-

- أن يحافظ الإمام على ما تحت يديه من مناطق اقرها صلح عام ١٠٢٢هـ/ ١٦١٢م .
- أن لا ينقل العثمانيون الأسرى من أبناء الإمام إلى الأستانة ويستبقونهم في صنعاء.
- أن يسمح الإمام بخروج الأمير العثماني صفر المحاصر في صعدة من قبل قوات الإمام سالما حتى يبلغ مأمنه.
- أن تكون مدة الصلح عاما واحدا يبدأ من شهر رجب عام ١٠٢٥هـ إلى شهر جماد الثاني ١٠٢٦هـ.

جعل هذا الصلح المناطق الشمالية جميعها بيد الإمام القاسم بن محمد عدا منطقتي خمر وكوكبان،اللتان ظلتا بيد العثمانيين ،أما منطقة صعدة فكانت خاضعة للقبائل الموالية للإمام.
غادر جعفر باشا اليمن ووصلها محمد باشا في شهر شعبان ١٠٢٥هـ/١٦١٦م.اتصل به الإمام القاسم وأبدى رغبته في تمديد الصلح لمدة عشر سنوات بين أن محمد باشا رد عليه بالرفض متعللا بعدم معرفته بطبيعة الأمور في اليمن ،مع تأكيد احترامه للصلح الذي عقد مع جعفر باشا.

المرحلة الرابعة من مراحل حرب الإمام للعثمانيين :

انتهت الهدنة بين الطرفين في شهر جماد الثاني عام ١٠٢٦هـ/١٦١٧م،واستأنفت الحروب مجددا.كان مستهل هذه الحروب انتصارات متتابعة للوالي العثماني ،ثم تلا ذلك انكسارات،مكنت الإمام من استعادة ما كان قد فقده ن علاوة على إضافة مناطق جديدة لسلطانه . وبعد ثلاث سنوات من الحروب المتواصلة توصل محمد باشا إلى أنه من الصعب تحقيق نصر حاسم على الإمام يعلي من مكانة هذا الوالي لدى السلطان العثماني.فأتباع الإمام أصبحوا أكثر عددا ،وأفضل تسليحا بفضل ما غنموه من القوات العثمانية في بعض المواقع ،علاوة على أن الحالة الاقتصادية للولاية ،والحالة النفسية للجند ،والإدارة العثمانية أملت عليه ضرورة الركون إلى السلم وعقد الصلح مع الإمام. من جهة أخرى كان الإمام بحاجة إلى هذا الصلح لتثبيت أوضاعه في المناطق الشمالية ،علاوة على ما عانته البلاد من تدهور في أحوالها الاقتصادية ،والأمنية.وقد ذكر الإمام فيما أورده الجرموزي عن أسباب قبول الإمام للصلح بأن قال:"قلت للإمام أراك تبذل الرغائب في الصلح،وقد عالجوك فيه مع وصول محمد باشا فلم ترض، والآن تطلبه ، فقال الإمام :الأولى أني رأيت أن اختم عمري بالجهاد وبتنغيص دنيا الظالمين،ورأيت الأمر تفاقم، وظننت قرب اجلي خفت أن يحدث الموت بي وأمور الإسلام على ما ترى فلا يتمكن أهله من النصر ويحصل في الإسلام ما يحصلن فرأيت المسارعة حتى ينتزح الأتراك عنا وفرج الله"

عقد الصلح بين الطرفين وكانت مدته عشر سنوات في شهر جمادى الأول عام ١٠٢٨هـ/١٦١٩م،ونص على ما يلي:

- أن يحتفظ الإمام على ما تحت يديه من مناطق
- أن يطلق سراح جميع الأسرى في السجون العثمانية باليمن عدا الحسن بن الإمام لأن هذا يتطلب أخذ موافقة السلطان العثماني عليه ،وأن يطلق الإمام من عنده من أسرى العثمانيين.

جدير بالذكر أن الوالي محمد باشا كان قد عامل الحسن بن القاسم في أسره معاملة كريمة حيث اسكنه في الطبقة العليا من الدار الحمراء بصنعاء ،علاوة على فك قيوده والسماح له بالخروج مع

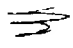
بعض الحرس من حين لآخر ،كما سمح لمن أراد زيارته بفعل ذلك ،وكان يفعل ذلك استرضاء للإمام واعترافا بمكانته ومكانة ابنه نعند جموع القبائل الزيدية.
أطلق العثمانيون من سجونهم ما يقرب من مائتين وأربعين رجلا من أتباع الإمام، وأطلق الإمام ما يقرب من أربعمائة أسير من العثمانيين،بعد أن كساهم ،وزودهم بما يعينهم للوصول إلى مأمنهم.وانتقل الإمام من منطقة وادعة إلى شهارة،و هدأت الأحوال بين الطرفين إلى أن وافت المنية الإمام القاسم بن محمد عام ١٠٢٩هـ/ ١٦٢٠م. وبوفاة الإمام القاسم تنتهي المرحلة الرابعة من مراحل حربه مع العثمانيين.

وبنظرة تحليلية إلى حروب الإمام هذه نرى أن الإمام قد نجح في تحقيق أهدافه على الرغم من صعوبة الظروف التي تولى فيها الإمامة،فالحكم العثماني في اليمن كان في أوج قوته إبان عهد الوالي حسن باشا ،وسنان باشا الكيخيا،وهذا ما يفسر لنا سبب تراجع انتصاراته في المرحلة وانعزاله في مرتفعات برط حتى أنه - كما تذكر بعض المصادر - فكر في الخروج من اليمن إلى البصرة. لكن هذه القوة لم تتمكن من استئصال جذوة التمرد عند الإمام بصفة خاصة والأئمة الزيديين على وجه العموم اليمن . وقد أظهرت لنا حروب الإمام حقيقة ولاءات القبائل اليمنية،فهي وإن كانت تميل بعاطفتها نحو الإمام ودعوته ،إلى أنها تحت ضغط البطش العثماني ،واستجابة للإغراء المالي كانوا يتخلون عن هذه الولاءات،حتى أن قبيلة وادعة هدده بالسلاح لترك مناطقها.كما أظهرت لنا هذه الحروب أن أماكن سكنى الزيديين، في المناطق الجبلية إضافة إلى تعاليم المذهب الزيدي الذي يحث على الخروج على الحاكم الجائر، كان عاملا أساس في جعل الأئمة الزيديين قادة طبيعيون للتمرد على الحكم العثماني . يقودهم إلى ذلك حرصهم على الاحتفاظ بمكانتهم وامتيازاتهم في المناطق الزيدية باليمن.ولا يغرب عن ذهننا أن سوء الحكم العثماني في اليمن واهتمام معظم الولاية تحقيق مصالحه الخاصة دون مصلحة الولاية ،أو مصلحة الدولة العليا كان محركا لليمنيين على اختلاف مذاهبهم لدعم تمرد الأئمة الزيديين على الحكم العثماني.

الحروب في عهد الإمام محمد بن القاسم :(١٠٢٩-١٠٤٥هـ/١٦٢٠-١٦٣٥م)

بويع الإمام محمد بن القاسم بالإمامة بعد وفاة والده،وتلقب بالمؤيد،وراسل الوالي محمد باشا،واخبره بتوليه الإمامة بعد والده،وأنه حريصا على المضي في الصلح الذي حدث مع والديه،فرد محمد باشا بالموافقة على استمرار الصلح. استمر الهدوء النسبي قرابة ثماني سنوات بين العثمانيين والإمام محمد ، طوال عهد محمد باشا.

استؤنفت الحروب مرة أخرى عام١٠٣٥هـ/١٦٣٥م عندما تولى حيدر باشا ولاية اليمن، حيث نقض الصلح قبل انقضاء مدته بسنتين لأن أحد كبار العلماء من أتباع الإمام قتل في صنعاء بحجة أنه كان يدعوا للإمام ويطالب الأهالي بمبايعة الإمام،وطالب الإمام محمد ، حيدر باشا عبر مكاتبات مطولة تسليم قاتل هذا الفقيه لمعاقبته أو لدفع الدية.وأذكى شيوخ القبائل نار الحرب بين الطرفين بضمان و لائهم للإمام إن هو حارب العثمانيين بإرسالهم الرهائن للإمام.
تمكن الإمام خلال عامين من بدأ الحروب من السيطرة على معظم أقاليم اليمن بما في ذلك تعز ،وصنعاء.وانحسر وجود العثمانيين في تهامة اليمن.وقد فشلت محاولات العثمانيين في ترميم أوضاعهم ،واستعادة ما فقدوه باليمن .فقد واجه والي الحبشة فشلا ذريعا حال وصوله إلى ميناء المخا عام ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م، إذ تمكن الحسن بن القاسم من محاصرته بالمخا . كذلك كان مصير حملة قانصوة باشا الفشل على الرغم من تحقيق بعض الانتصارات التي ما لبثت وأن تحولت على هزائم أدت في محصلتها النهائية إلى طلب الصلح مع الإمام المؤيد عام١٠٤٥هـ/١٦٣٥م.
وانتهى الحال ببعض الجنود العثمانيين في اليمن الالتحاق بالمؤيد والانضمام إلى جنده.وقد ظل قانصوة باشا في اليمن مقيما عند الحسن بن القاسم إلى أن غادر اليمن بحرا إلى مصر.وطلب آخر القادة العثمانيين الأمير مصطفى الصلح من الحسن بن القاسم على أن يسمح له ومن معه من الجند مغادرة اليمن سالمين فتم لهم ذلك،وكان ذلك آخر عهد العثمانيين بحكم اليمن إبان الفترة الأولى.



نظرة عامة على حكم العثمانيين الأول لليمن:

كان هدف سيطرة العثمانيين على اليمن بالدرجة الأولى هدفا استراتيجيا عسكريا،وذلك لاتخاذ سواحل اليمن قاعدة أولى للدفاع عن الأماكن المقدسة في الحجاز وحمايتها من الخطر البرتغالي المحدق بها،وقد استتبع هذا الهدف ضرورة استمرار الجيش قويا متأهبا لاستعماله عند الحاجة.وقد انتهج العثمانيون لفرض سلطانهم على اليمن إبان فترة حكمهم الأول سياسة مؤداها القوة والعنف قد شهدت البدايات الأولى لتغلغل العثمانيين داخل اليمن وسيطرتهم على صنعاء أعمال عنف ونهب وقتل،وقف عندها كثير ممن أرخ لهذه الفترة الزمنية ، فقد قتل العثمانيون حال اجتياحهم صنعاء ما يقرب من ألف ومائتين من الأهالي ،كما انتهبت البيوت ،والحرمات ،واستباح الجند صنعاء ثلاثة أيام ، حيث بيعت النساء علانية في اسواق ،حتى اضطر بعضهن إلى قتل نفسه خشية الفضيحة والعار ،وذلك قبل أن يكبح أزدمر باشا قائد الجيش جماح جيشه.

إن سياسة القوة هذه أظهرت بجلاء النظرة الاستعلائية التي غالبا ما تحدد علاقة الحاكم بالمحكوم،وقد بدت واضحة في معظم الإدارات العثمانية التي تعاقبت على اليمن،ولعل هذا ما يفسر لنا عدم احترام كثير من ولاة اليمن من العثمانيين للعهود والمواثيق التي يبرمونها مع الأعيان والأمراء المحليين فضلا عن شيوخ القبائل اليمنية،ولعل هذا ما وسم الحكم العثماني الأول لليمن بسمة الغدر ،الذي ظل ملازما لهم طيلة فترة حكمهم الأولى على الرغم من حرص قلة من القادة والولاة على تحسين الصورة الذهنية للعثمانيين عند عامة أهالي اليمن.

وكانت مركزية الحكم سمة بارزة من سمات الحكم العثماني في اليمن .فكانت جل النظم العثمانية تستمد صلاحياتها من السلطان العثماني ذاته. فمن الناحية النظرية كانت الإرادة السنية للسلطان العثماني هي المحرك الأساس لكل فعالية من فعاليات الولاية .وواقع الحال يجعل الوالي العثماني في اليمن نائبا عن السلطان في الولاية ،ونظرا لبعد الولاية عن متابعة السلطان الدقيقة لأفعال الوالي كان الوالي باليمن بمثابة السلطان في ولايته.فكان هو الحاكم الناهي في واقع الأمر ،حيث أن من كان من المفترض أن يكونوا رقباء على الوالي كالمحتسب ،وقاضي القضاة غالبا ما تتحد مصالحهم مع الوالي مما يعزز من تسلط الوالي في ولايته.

كانت السمة العسكرية هي سمة الحكم العثماني بصفة عامة ،فكانت الحكومة والجيش شيئا واحدا ،وقد كان الوالي هو قائد الجيش ،وظل الولاة العثمانيون يقودون جيوشهم في اليمن باستثناء الوالي حسن باشا الذي أناب عنه نائبه سنان باشا الكيخيا .وكانت المهمة الأساسية للإدارة العثمانية زيادة قوة الدولة وتوسيع رقعتها ،وتدعيم سيطرتها على الأقاليم ،وضمان ولائها للسلطان.لذلك نجد أن لم يولي ولاة اليمن اهتماما كبيرا بالإصلاحات العامة مثل مد شبكات الطرق ،والعناية بالخدمات البريدية ،والتعليمية ونحوه ،إلا بما يخدم مهمته الأساسية.

ولعل من سمات حكم العثمانيين في اليمن ضخامة جهز الدولة التنفيذي فقد كان الوالي هو رأس الولاية البكلربيك) -كما ذكرنا سابقا- يساعده عدد من الموظفين الذين تتشابه أعمالهم ومسميات وظائفهم مع موظفي الحكومة المركزية في الأستانة.فكان هناك الكتخدا (نائب الوالي)، والمفتي، الريس أفندي ،والدفتر دار مع من يتبعه من الكتاب والمحصلين،والسناجق(أمراء المدن والمقاطعات داخل الولاية) مع من يتبعهم من الموظفين.وكان من ضمن الهيئة الحاكمة الصوباشي ،الأغا) وهو من يحكم المدن الصغيرة وقت السلم،ويعاونه عدد من الجند الإنكشارية،والعرب ،والفرسان غير النظاميين.ويأتي في رتبة أقل منه (أميرلاي" وهو الذي يتنقل بقوة قوامها ٢٠٠-٥٠٠ جندي كلما دعت الحاجة إليه.وكل من هؤلاء كان يتبعه عدد وافر من المساعدين.وقد استعان العثمانيون ببعض الأهالي في مختلف الوظائف في الإدارة والجيش بصرف النظر عن الانتماء المذهبي.

اعتمدت الدولة العثمانية على نهج إرسال النجدات العسكرية لولاتها في اليمن كلما اقتضت الحاجة ،وكانت ولاية مصر هي العين الناظرة للسلطان العثماني على ولايات اليمن والحجاز .فقد وصل أويس باشا إلى ولاية اليمن على رأس جيش لمساعدة واليها ،كذلك الحال مع مصطفى النشار ،وسنان باشا ،وعابدين باشا ،وأخيرا قانصوة باشا.

اهتم الولاة في اليمن ببناء الحصون والقلاع وتعبأتها بالأسلحة والعتاد مما يضفي صفة الحكم العسكري على الولاية .ولعل ما دفعهم للتوسع في هذا الأمر عدم استقرار حكمهم في اليمن ،وكثرة تمرد القبائل في كافة المناطق اليمنية على اختلاف مذاهبها ،وإن كان تمرد الزيديين هو الأكثر عنفا وفعالية.

قسمت ولاية اليمن إلى تسع الوية أو سناجق هي : صنعاء،مخا،زبيد،تعز،صهلة،كوكبان،طويلة،مأرب،عدن.واشتمل كل لواء على بعض من المدن الهامة:فقد ضم لواء صنعاء كل من : حراز،حجة،ذمار،يريم،رداع ،عمران.وضم لواء الحديدة: زبيد،اللحية،الزيدية،بيت الفقيه،باجل ،ابو عريش.وضم لواء عسير ابها ،والقنفذة،كما ضم لواء تعز كل من : إب،الحجرية،مخا،قعطبة.

الصراع العثماني ـ اليمني

تميزت الفترة التي حكم العثمانيون اليمن فيها بأنها فترة شديدة الاضطرابات ، حيث رفض الأئمة الزيديون منذ البدء حكم العثمانيين لمناطقهم ، بل تعدى رفضهم للحكم العثماني أن سعوا إلى إخراج العثمانيين من اليمن كاملة ، الأمر الذي جعلهم القادة الطبيعيين للثورة اليمنية على الوجود العثماني في اليمن.

أسباب رفض اليمنيين للحكم العثماني:-

1) دفاع الأئمة الزيديين عن أوضاعهم الخاصة في اليمن.
2) عمل العثمانيين إبان حكمهم لليمن على تضييق الخناق على الأئمة الزيديين، وحصر نفوذهم ومحاربة دعاتهم.
3) انتشار الفساد في الدولة العثمانية بصفة عامة واليمن بصفة خاصة الأمر الذي أغرى أعدائها على إعلان التمرد عليها .
4) الممارسات الخاطئة لكثير من الولاة العثمانيين في اليمن والتي يمكن تلخيص أسبابها في عمل هؤلاء الولاة على تحقيق مصالحهم الخاصة، وعدم الالتفات إلى إجراء الإصلاحات التي تهم اليمنيين ، إضافة إلى ممارستهم التي تتنافى وما كان يمكن أن يتقبله مجتمع محافظ كالمجتمع اليمني، وإرهاق كاهل اليمنيين بالضرائب الجائرة وجمعها من قبل الموظفين العثمانيين بشتى الوسائل العنيفة .
5) سياسة المركزية في الحكم التي انتهجها العثمانيون عقب حركة التنظيمات التي شرعت الدولة في تنفيذها في محاولة منها التخلص من نظام الالتزام الفاسد في جمع الضرائب.
6) انتهاج العثمانيين لأسلوب العنف والشدة لقمع ثورات القبائل اليمنية
7) إساءة العثمانيين معاملة العلماء اليمنيين اعتقادا منهم أن هؤلاء العلماء يقومون بتأليب القبائل عليهم. (كان الإمام محمد بن يحي حميد واحدا من هؤلاء العلماء الذين أسيئ لهم حيث مكث في السجن قرابة عامين كاملين).
8) تقريب الإدارة العثمانية لبعض الوصوليين من اليمنيين من غير ذوي المكانة في المجتمع اليمني الأمر الذي أثار حفائظ أهل الحل والعقد في اليمن
9) حالة الفقر الذي كانت تعيشه اليمن نتيجة لسوء الإدارة العثمانية ونتيجة للعوامل الطبيعية من قحط وجدب، الأمر الذي دفع الولاة إلى مهاجمة دور اليمنيين لاستخراج الحبوب والحنطة ووضعها تحت تصرف الوالي .(احمد فيضي باشا).
10) عدم وصول شكاوى اليمنيين المتكررة إلى الباب العالي نتيجة لتسلط الولاة ووقوف المنتفعين معهم في البلاط العثماني .
11) قضت سياسة العثمانيين المركزية بفصل السلطة العسكرية عن السلطة الإدارية لكي تبقى كلا السلطتين رقيبة على الأخرى ، هذا أدى إلى قيام نزعات عدة بين من يمثلون السلطتين ، الأمر الذي أدى في النهاية إلى ضعف الحكم العثماني في معظم الولايات وليس اليمن وحدها.

١٢- تفشي الرشوة بين المامورين العثمانيين في اليمن وكبار رجال الدولة في الولاية وفي الأستانة ، الأمر الذي وقف حائلا دون محاولات الإصلاح الجادة. وهذا بطبيعة الحال أذكى من روح الكراهية للحكم العثماني في اليمن.(مثال على الفساد : عقب تولي عثمان باشا أمر ولاية اليمن سنة ١٨٨٨م حرضه المامورون الترك الكتابة إلى جميع المشايخ في البلاد من تعز وعسير والحديدة وسائر الأقضية مستدعيا إياهم للحضور إلى صنعاء في الوقت الذي أشاعوا أن الوالي أراد استدعائهم لترحيلهم إلى الأستانة لإقرار الأمن في البلاد، وعندما شاع هذا الخبر أخذ هؤلاء المشايخ يوسطون المامورين لإقناع الوالي بالعدول عن قراره ودفعوا من أجل ذلك الغالي والرخيص، وإذا حدث ولم يدفع أحد اليمنيين الرشوة ولم يحضر للقاء الوالي يتعرض منزله لمهاجمة الجند فتصادر أمواله وممتلكاته وقد يتعرض للسجن..

١٣- طبيعة تكوين المجتمع اليمني القائم على الولاء القبلي وبالتالي فشل المحاولات العديدة لإقامة دولة مركزية واحدة تنتظم جميع المناطق.

١٤- الاختلاف المذهبي بين اليمنيين والعثمانيين.



العثمانيون بعد سيطرتهم على اليمن:

١- بدا العثمانيون بتنظيم ممتلكاتهم في اليمن.
٢- أرسل السلطان العثماني مرسومين لتثبيت الأميرين اللذين عينهما الخادم على عدن وزبيد
٣- ارسل السلطان مرسوم ثالثا للإمام شرف الدين في اليمن يأمره بإبقاء الأوضاع على ما هي عليه ويأمره بارسال الى كل من عدن وزبيد
٤- تحولت ممتلكات العثمانيين بعد ذلك في اليمن سريعا لتصبح اليمن إيالة عثمانية لها كل ما للإيالات العثمانية الأخرى من حيث التنظيم الإداري العثماني.
٥- تبعا لذلك ظهرت في اليمن وظائف عثمانية تقليديه مثل الوالي ،الكتخدا،الدفتردار،والسنجق،والأغوات وغيرهم.
٦- كان اول والي عثماني لليمن هو مصطفى باشا النشار إذ صدر قراره سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤١م
٧- استمرت ولايته ٥ سنوات وتميزت فترة حكمه بالهدوء النسبي. وقد حاول البرتغاليون التغلغل داخل البحر الأحمر في عهده ،ووصلوا الى ميناء الطور إلا أن محاولتهم لم تسفر عن شيئ يذكر.
٨- ارسل النشار لمسلمي الحبشة بعض الدعم العسكري بناء على طلبهم لمحاربة النجاشي ملك الحبشة وحلفاؤه البرتغاليون..
٩- ناوش العثمانيون البرتغاليين عند مدخل البحر الأحمر، وبحر العرب ،كذا ناوشوا الزيديون في تعز.
١٠- عيين السلطان سليمان الوالي أويس باشا واليا جديدا لليمن سنة ١٥٤٦م.
١١- أرسل هذا الوالي مزودا بقوة كبيرة في معداتها وأدواتها الحربية .لماذا؟ رغبتهم في تحويل اليمن لقاعدة حربية
١٢- في عهده بدأ التوسع العثماني في المناطق الداخلية لليمن ،مستغلين أوضاع الزيديين السيئة. (فصل فيها قليلا)
١٣- أسباب توجه العثمانيين للداخل :-
- الخلاف الزيدي
- تأليب الإسماعيليين
- تأمين مواقع العثمانيين في الساحل بالتوسع في الداخل
- إشغال الجند
- الخلاف المذهبي
١٤- توجه الجيش العثماني الى تعز وليس لصنعاء كما طالب المطهر وذلك لأهمية تعز الإستراتيجية ،ولأنه أراد أن يؤمن خطوط رجعته قبل أن يلقي بجيشه في معركة لا يعرف مصيرها.
١٥- سقطت تعز بعد مقاومة محودة في يد العثمانيين
١٦- تقدم الجيش العثماني في طريق ذمار الى الجنوب من صنعاء
١٧- تمكن بعض المتآمرين من قتل أويس باشا وهو مخمور سنة ١٥٤٧م

١٨- تولي أزدمر زمام الأمور ،وإكمال المسير الى صنعاء
١٩- طبيعة الحكم العثماني لليمن:

ك/

الحكم العثماني الأول لليمن:

ولاة اليمن :-

١-- مصطفى النشار

-كان أول من تولى ولاية اليمن من الولاة العثمانيون

٢- اويس باشا :

في عهده حدث التغلغل للداخل

أزدمر باشا:

أكمل السيطرة على المناطق الداخلية،حاصر المطهر بن شرف الدين وعقد صلحا معه،ويعتبر الفاتح الأول لليمن،عزل عن ولاية اليمن سنة ١٥٥٥م بناء على طلبه وعين واليا على ولاية الحبش حتى وفاته سنة ١٥٦٠م

مصطفى النشار للمرة الثانية:-

اضطرب أحوال العثمانيين في اليمن في عهده لعدة أسباب

١- سوء سياسته مع حلفاء العثمانيين من الأمراء الزيديين

٢- كالأمير شمس الدين بن شرف الدين يحي، عندما لم يحسن استقبال لبنه محمد حال وصول مصطفى أرض اليمن ، مما حدا بالأمير محمد نصح والده بالانضمام إلى عمه المطهر.وأصبح محمد من أكبر مناصري المطهر لا حقا خاصة بعد وفاة والده.

٣- وقوع بعض الاضطرابات بين الجند العثمانيين كذا الأمراء بعد عزل أزدمر باشا كما هي عادة الجند عند عزل الوالي وتعيين وال جديد.

٤- عند مرض مصطفى النشار ومن ثم وفاته حدث خلاف شديد بين الأمراء العثمانيين كاد أن يؤدي إلى حرب بين صفوف العثمانيين.وذلك لتولي أمر اليمن لدفتر دار الإدارة العثمانية في اليمن بناء على وصية مصطفى النشار بينما نازعة الأمر كاشف تعز. لم تدم ولاية النشار ٦ أشهر.

٥- قبض كاشف تعز على مقاليد الحكم ومال الدفتر دار للسلم.

٦- أدت هذه الفتنة في الإدارة العثمانية إلى هز مكانة الإدارة العثمانية في أعين اليمنيين.

٧- تولى أمر اليمن بعد مصطفى النشار عدد من الولاة الضعاف الذين غلبوا مصالحهم الخاصة على مصلحة الدولة العليا.

٨- **كان أولهم مصطفى باشا قرة شاهين** الذي دامت ولايته ٤ سنوات،واشتهر بحبه للمال ،وضيق على الجنود ،ولم تؤثر عنه أي أعمال عامة، بل عند عزله نقل معه أموال كثيرة وظفها للوصول الى ولاية مصر.

٩- **جاء بعده محمود باشا** الذي كان مثالا صارخا للفساد والأنانية ،وظف كل الإمكانات المتاحة لديه لتحقيق أغراضه الخاصة،كان مثالا للغدر والخداع وقد نسب اليه مثل وعود محمودية. ابتدع خلافا مع علي بن عبدالرحمن النضاري صاحب حصن حب. استمرت ولايته ٤ سنوات. عزل وانتقل لمصر

١٠- **خلفه رضوان باشا** وكان واليا غرا صغير السنفيه الكثير من الغرور ،فلم يحرص كما فعل أسلافه على تجديد العهد مع المطهر بن شرف الدين بل تعامل بتعالي مبالغ فيه مع مندوب المطهر. كسب رضوان باشا بعدم تجديده الصلح عداء المطهر ،علاوة على أنه سعى لكشف الفساد الذي كان عليه محمود باشا في اليمن. كان والي مصر كما ذكلانا سابقا هو العين الناظرة للسلطان على اليمن ، وكان البريد اليمني للأستانة لابد وأن يمر بمصر فتمكن محمود باشا والي مصر أن يعلم بما يقوم به رضوان من كشف الاعيبه للسلطان العثماني.

١١- عمل محمود باشا على أن تقسم ولاية اليمن إلى ولايتين عثمانيتين وضع محمود باشا على الشق الشمالي ، الأكثر صعوبة ،فقرا ،اضطرابا سياسيا ،بينما عين الوالي مراد باشا واليا على الشق الجنوبي.

١٢- حدث احتكاك بين الواليين على الصلاحيات والحدود بين الولايتين.
١٣- واصل محمود باشا الكيد لرضوان حتى عزل رضوان عن اليمن بعد فشله فينهما أن يقفا في وجه المطهر وأتباعه. المحافظة على استقرار الأوضاع سنة ١٥٦٧م
١٤- كان الصدام العسكري قد بدأ بين رضوان والمطهر وخرج المطهر في محصلته النهائية منتصرا.
١٥- أدت سياسة رضوان المتسرعة والمتعالية إلى نجاح المطهر في كسب تأييد الإسماعيليين ، وكثير من شيوخ القبائل في حربه للعثمانيين.
١٦- لم يستطع الواليين العثمانيين بسبب النزاع الذي نشأ بينهما الوقوف في وجه جموع المطهر بن شرف الدين ، وكانت قواته تسير من نصر إلى نصر
١٧- قامت إحدى القبائل التهامية المؤيدة للمطهر بإلقاء القبض على مراد باشا وقطع رقبته وإرسالها إلى المطهر (حربه مع المطهر)
١٨- غدت ولاية اليمن بلا والي حيث عزل رضوان وقتل مراد وبدا أن المطهر هو رجل الساحة في اليمن فعليا.
١٩- أصدر السلطان العثماني فرمانا بتعيين حسن واليا على اليمن خلفا لرضوان،وعند وصوله الي اليمن كان المطهر قد سيطر على صنعاء ، وكانت قواته تحاصر تعز ،مما اضطر حسن باشا للإنسحاب الى زبيد والتحصن فيها في انتظار مساعدات والي مصر محمود باشا.
٢٠- أخذت قوات المطهر تخرج الحاميات العثمانية من المناطق الشمالية بل تعدت ذلك إلى المواقع التهامية،حتى حصر وجود العثمانيين في عدن وزبيد وما حولهما.

أسباب تردي أوضاع العثمانيين في اليمن:-

١- سوء سياسة الولاة التي أدت إلى ضعف أوضاع العثمانيين المالية، والسياسية والاقتصادية.
٢- تقسيم اليمن إلى ولايتين أضعف كلا منهما الآخر.
٣- تذمر اليمنيين من سياسة العثمانيين ،وانتشار روح الثورة بينهم.
٤- قوة شخصية المطهر وحنكته السياسية. ونجاحه في المحافظة على وحدة الجبهة الزيدية.

حملة سنان باشا:-

١-أسباب إرسال الحملة:-
٢-ملابسات إرسال الحملة
٣- قيادة الحملة مصطفى اللالا، سنان باشا
٤-دوافع سنان باشا لتولي قيادة الحملة
٥- المكايد التي دبرها لمصطفى اللالا
٦- أوضاع الإدارة العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني
٧- حملة سنان باشا سنة ١٥٦٩-١٥٧١/٩٧٦-٩٧٨هـ

- **أطلق على الحملة مسمى الفتح العثماني الثاني (النهروالي). آراء الطلاب**
- **علق العثمانيون على هذه الحملة آمالا كبيرة في استعادة سيطرتهم على اليمن وبالتالي المحافظة على هيبة الدولة. روي عن السلطان سليم الثاني قوله " ان استردادنا لمملكة اليمن وان كان ذلك مما يتعين علينا لأنها ميراث ابينا اللمرحوم المقدس لكن جل قصدنا من لك انما هو حفظ ثغر عدن صونا للحرمين الشريفين من الكفار الملاعين"**
- **تعكس ملابسات إرسال الحملة مدى قوة الدولة العثمانية في نفس الوقت الذي توضح فيه أن بذور الضعف قد بثت في جسد الدولة.(الفرق بين**

سليمان القانوني وخليفته سليم الثاني، الصدر الأعظم محمد باشا الصوقلي.

- بدا العثمانيون في التفكير بإرسال الحملة بعد وفاة محمود باشا والي مصر وتكشف حقيقة أحوال اليمن.

أسباب اهتمام العثمانيين إرسال الحملة :-

١- قوة الدولة العثمانية آنذاك

٢- أن اليمن كان يشكل جزءا هاما من إستراتيجية العثمانيين في الدفاع عن الأماكن المقدسة،ومواجهة البرتغاليين في البحار الشرقية

- ملابسات تعيين سنان باشا للحملة بعد تعيين مصطفى اللالا.
- مراسلات مصطفى الالا مع المطهر وردود المطهر عليه ومحاولاته حل تمرد المطهر سلميا
- الخلاف بين سنان باشا ومصطفى للحد الذي اتهم سنان مصطفى بأنه يسعى للاستقلال بمصر عن السلطنة العثمانية.
- ساعد اللالا على إرسال عثمان باشا على رأس قوة كبيرة ٣٠٠٠ جندي،١٧ سفينة،تمكن عثمان باشا من السيطرة على تعز ،وحاصر حاميتهاسنة ١٥٧٠

يمكن تقسيم مراحل مسير الحملة الى ثلاثة مراحل:

- السيطرة على تهامة ومناطق الجنوب تعز ،وعدن
- السيطرة على منطقة وسط الهضبة حتى صنعاء شمالا
- السيطرة على ثلا والصدام مع المطهر

الصراع الزيدي العثماني في اليمن

(في الفترة ١٥٣٨ - ١٥٧٤م)

إن استقراءنا لحقيقة الصراع الزيدي العثماني في الفترة ١٥٣٨/١٥٧٤م من مراحل التاريخ اليمني الحديث، يوضح لنا أنه كان صراع مصالح واستراتيجيات أكثر منه صراعاً عقدياً مذهبياً. فعلى الرغم من الاختلاف المذهبي بين العثمانيين الأحناف والزيديين الشيعة، إلا أن هذا الاختلاف لا يمثل عاملاً جوهرياً من عوامل الصراع الدموي الذي كان محتدماً بين الطرفين في هذه الفترة. ولتوضيح ذلك نرى أنه من المفيد في دراستنا هذه أن نلقي بعض الضوء على ما حققه الزيديون قبيل فتح العثمانيين لبلاد اليمن سنة ١٥٣٨م. فقد نجح الإمام شرف الدين وأبناؤه، وفي مقدمتهم المطهر بن شرف الدين في أن يسيطروا على أغلب المناطق اليمنية مستغلين بذلك تضعضع القوتين الأخرتين اللتين كانتا قائمتين في البلاد ألا وهما قوة الطاهريين في عدن والمناطق الجنوبية، وقوة المماليك في زبيد وما حولها(١). فما أن أعلن في صنعاء عن سقوط دولة المماليك سنة ١٥١٧م في مصر على يد العثمانيين، حتى سارع زعيم المماليك في بلاد اليمن الإسكندر بن محمد بإعلان دخوله تحت التبعية العثمانية الاسمية(٢) وانسحب بقواته من صنعاء متجهاً إلى زبيد مخلفاً وراءه حامية صغيرة بها(٣). ومن الطبيعي أن ينتهز الإمام شرف الدين هذه الفرصة ليوسع ممتلكاته، فسارع بإرسال قواته إلى صنعاء، حيث نجحت هذه القوات في السيطرة عليها سنة ١٥١٧م(٤). وأخذت المناطق اليمنية الأخرى تتساقط تباعاً، ففي سنة ١٥٢٠م سيطر الإمام على ذي مرمر بعد أن سلمها عامل الطاهريين بها، وفي سنة ١٥٢٢م سقطت منطقة عمران وبعض مناطق بلاد همدان وفي سنة ١٥٢٨م سقطت كل من خولان والمقرانه والفارد ورداع. وفي سنة ١٥٣٤م سيطرت جيوش الإمام بقيادة المطهر على مدينة تعز. بل إن قوات الإمام حاولت

إسقاط كل من زبيد آخر معاقل المماليك في بلاد اليمن، وعدن مرتكز الطاهريين الحصين، إلا أن محاولاتهم باءت بالفشل لإحكام المماليك خطة دفاعهم عن زبيد بإغراق السبل المؤدية إليها بالماء وذلك لإعاقة حركة الجيوش الزيدية، وجعلها هدفاً سهلاً للقوات المملوكية المدافعة. كما فشلت محاولات الزيديين في إسقاط عدن لمناعة هذه المدينة الطبيعية، وسهولة الدفاع عنها لمن في داخلها(٥).

ولم تقتصر حروب الإمام شرف الدين وأبنائه على المماليك والطاهريين، بل تعدتها إلى بعض الزعامات المحلية المناوئة لحكم الإمام كحربهم للسيد عز الدين بن الحسن المؤيدي صاحب مدع وكحلان، وحربهم للأمير عبدالله الشويع أحد أمراء منطقة الجوف(٦) وحربهم للداعي حسين بن إدريس بن عبدالله زعيم طائفة الإسماعيلية ببلاد اليمن(٧)، وقد أسفرت جميع هذه الحروف – في محصلتها النهائية – لصالح الإمام شرف الدين.

فما أن وصلت حملة سليمان باشا الخادم إلى أرض اليمن سنة ١٥٣٨هـ، إلا وكان الإمام شرف الدين وأبناؤه يسيطرون فعلياً على معظم مناطق اليمن. ومن البديهي إذاً أن يقف الإمام شرف الدين ومن خلفه أبناؤه والزيديون – من القادمين الجدد (العثمانيون) – موقف المعادي المتربص حيث أن قدوم العثمانيين هذا من شأنه أن يحرم الإمام شرف الدين وأبناؤه بصفة خاصة من حلم إنشاء دولة تحت زعامتهم تشمل معظم المناطق اليمنية، كما أنه من شأنه أن يحرم الزيديون بصفة عامة من حلم طالما داعب مخيلتهم، ألا وهو السيطرة على المناطق الجنوبية والتهائم الأكثر غناً وثروة من مناطق سكنى الزيديين(٨).

وفي المقابل كان العثمانيون قد قدموا إلى بلاد اليمن لخدمة غرض أكبر من مجرد السيطرة على هذه البلاد وجعلها إحدى إيالات الدولة المترامية الأطراف. فقد كان هاجس العثمانيين مواجهة الغزو البرتغالي للبحار الشرقية، وحماية الأماكن المقدسة التي كانت عرضة لتهديدات متكررة من السفن البرتغالية(٨). والأمر كذلك كان لابد للعثمانيين بعد سيطرتهم على السواحل اليمنية من الاطمئنان على سلامة

الجبهة الداخلية لبلاد اليمن، والعمل على استئصال كل ما يعوق تحقيق هذا المطمح، خاصة وأن الدولة العثمانية كانت آنذاك في عنفوان قوتها، وليس أضمن للعثمانيين من تحقيق وحدة الجبهة اليمنية إلا إحكام السيطرة الفعلية على كافة المناطق اليمنية. ولتحقيق هذا الغرض انتهج العثمانيون سياسة يمكن لنا أن نصفها (تجاوزاً بسياسة المراحل)، وقد تناغمت هذه السياسة مع الاستراتيجية العسكرية – كما نتصورها – التي انتهجها العثمانيون لمواجهة أخطار تغلغل البرتغاليين داخل البحر الأحمر.

فالمرحلة الأولى

كانت تقضي بأن يكتفي العثمانيون بإحكام السيطرة على أهم المناطق الساحلية اليمنية، وتثبيت دعائمهم فيها، مع إشعار البرتغاليين بمدى حجم القوة العثمانية في بلاد اليمن، وهذا بدوره سيؤدي إلى رفع معنويات المسلمين في المناطق المتأثرة بالوجود البرتغالي.

والمرحلة الثانية

كانت تقضي بتصفية القوى السياسية المحلية في المناطق اليمنية الداخلية، حتى لا تشكل هذه القوى أي خطر مستقبلي على نفوذ العثمانيين في المناطق الساحلية. ولما كان الزيديون الممثلون بأسرة الإمام شرف الدين هم القوة السياسية المحلية ذات الوجود السياسي الملموس، كان لابد للعثمانيين من الدخول في صراع حتمي معها.

على ضوء هذا التصور أجدني منساقاً نحو الاعتقاد بأن هدف الحملة العثمانية سنة ١٥٣٨م الأساسي لم يكن من قبيل منازعة البرتغاليين السيطرة على البحار الشرقية أو الدخول معهم في حروب تصفية وإزاحة بقدر ما هو إحكام لسيطرة العثمانيين على بلاد اليمن بما يعنيه ذلك من تصفية للكيانات السياسية المحلية القائمة آنذاك. وذلك لاتساق هذا العمل – كما ذكرنا سابقاً – مع غيره من الأحداث التي

تمثل الاستراتيجية العسكرية العثمانية لمواجهة البرتغاليين في البحار الشرقية. فقد كانت هذه الاستراتيجية – كما أحسبها – تقضي بأن ينتهج العثمانيون سياسة دفاعية في صراعهم مع البرتغاليين يدفعهم إلى ذلك أن القوة العثمانية في أساسها قوة برية (١٠)، مع الاعتراف بأنه قد كان للعثمانيين أساطيل قوية في حوض البحر المتوسط، وأنها نجحت في تحقيق العديد من الانتصارات البحرية(١١)، إلا أن الأمر يختلف كثيراً إذا ما سُلطت الأضواء على البحار الشرقية، حيث إن الوجود العسكري البحري العثماني محدود جداً، في المقابل كان البرتغاليون – وهم في أساسهم بحريو القوى – قد نجحوا منذ سنة ١٥٠٥م في تأسيس مستعمرة لهم بساحل المليبار، مع ما يعنيه ذلك من وجود عسكري بحري قوي(١٢). لذا فإن السيطرة العثمانية على بلاد اليمن، ومن ثم السيطرة على سواحل أفريقيا الشرقية المطلة على البحر الأحمر من شأنه أن يحول هذا البحر إلى بحيرة عثمانية(١٣)، وهذا ما شرع العثمانيون في تحقيقه منذ السنوات الأولى لاستيلائهم على بلاد اليمن.

ولتحقيق المرحلة الأولى من هذه السياسة العثمانية، غادرت حملة سليمان باشا الخادم السويس سنة ١٥٣٨م بعد إكمال الترتيبات اللازمة في طريقها إلى اليمن(١٤). ونجح الخادم في السيطرة على عدن بعد إعماله الحيلة حيث غدر بسلطان الطاهريين عامر بن داؤود فقتله مع بعض من وزرائه(١٥). وبعد أن اطمئن الخادم إلى استتباب الأمر له في عدن ترك بها حامية تقدر بنحو ٥٠٠ جندي وعين لها حاكماً عثمانياً ثم اتجه إلى الهند. وفي الهند ساهمت الحملة في محاصرة حصن ديو الذي كان تحت سيطرة البرتغاليين، إلا أنه قبل سقوط الحصن عاد إلى السواحل اليمنية، حيث أكمل سيطرة العثمانيين على هذه السواحل فدانت الشحر لهم حيث أعلن حاكمها بدر بو طويرق دخوله تحت التبعية العثمانية، في المقابل تم تعيينه حاكماً على المنطقة الممتدة من حضرموت إلى ظفار. ثم سقطت منطقة المخا في يد العثمانيين بعد أن غدر الخادم بأميرها المملوكي الناخوده أحمد فقتله مع بعض عبيده. كما سيطر الخادم على جيزان بعد طرده لعامل شريف مكة أبو نمي عليها،



وتعيين عامل لها من قبله، وجعلها تابعة لمنطقة زبيد تأتمر بـأمر حاكمهـا، وقبـل ارتحال الخادم عن بلاد اليمن، أوصى نائبيه في زبيد وعـدن بضـرورة إخضـاع منطقة تعز للحكم العثماني[١٦]، لتكتمل بذلك المرحلة الأولى مـن مراحـل سـيطرة العثمانيين على بلاد اليمن. ومن الجدير بالملاحظة أن هذه المرحلـة مـن مراحـل السيطرة العثمانية على بلاد اليمن لم تخل من الاحتكاك العسكري مع قوة الزيـديين المسيطرة على منطقة تعز. فقد حاول العثمانيون عملاً بتعليمات الخادم إسقاط بعض الحصون القريبة من زبيد كحصن قوارير كما عملوا على إسقاط منطقة تعـز، إلا أن الزيديين نجحوا في الدفاع عن ممتلكاتهم هناك وتكبيد العثمانيين خسـائر فادحـة اضطرتهم للانسحاب إلى زبيد مخلفين ورائهم بعض المدافع والأثقال[١٧].

لقد ظل العثمانيون يتحينون الفرص لإخضاع ما تبقى من بلاد الـيمن تحـت سلطاتهم، والإجهاز على القوة الزيدية القائمة في المناطق الداخلية. وقد تهيأت لهـم الظروف في سنة ١٥٤٦م حينما دب النزاع داخل أسرة الإمام شرف الدين، وتفـاقم للدرجة التي دفعت المطهر بن شرف الدين لأن يكاتب القبائل الموالية للإمام يخبرها بخلع عصى الطاعة عن والده. وكانت ثالثة الأثافي استدعاء المطهر أويـس باشـا الوالي العثماني في زبيد ليحثه على مهاجمة صنعاء، ويعده بالمساعدة لتحقيق ذلـك. ومن الطبيعي أن ينتهز أويس باشا هذا الظرف، فزحف بقواته نحـو صـنعاء عـن طريق ذمار، وبعد قليل من المعوقات نجح العثمانيون بقيادة الأمير أزدمر – الـذي تولى قيادة القوات العثمانية بعد مقتل أويس باشـا – فـي السـيطرة علـى مدينـة صنعاء[١٨]، ليمتد بذلك سلطان العثمانيين إلى المناطق الداخلية، وليقلص من أمـلاك الزيديين في البلاد لتنحصر في المناطق الجبلية الوعرة كثلا وكوكبـان وغيرهمـا. ومن المفارقات الغريبة أن المطهر بن شرف الدين هو الذي تولى أمر الدفاع عـن صنعاء أمام الزحف العثماني، وذلك بعد أن تنازل له والده وأخوته عنها مقابل توليه أمر هذا الدفاع، وأبرم بين الطرفين اتفاق بهذا المعنى [١٩] إلا أن هذا الاتفاق حمـل

في طياته بذور الخلاف والشقاق. فما أن بدأ المطهر في إعداد العدة لمواجهة الزحف العثماني حتى أخذ إخوته بالفشل والتخاذل.

ولم يكتف علي بن شرف الدين بالانسحاب إلى حصنه في ذي مرمر، بل عمل على استمالة القبائل التي كانت قد دخلت تحت طاعة المطهر للخروج على هذه الطاعة، بل وتحريض العثمانيين أنفسهم المتربصين في ذمار للتقدم لحرب المطهر. بل إن سقوط صنعاء نفسها تم عن طريق خيانة أحد القائمين على حماية مداخلها الأساسية، بالسماح للعثمانيين بالدخول من ذلك المدخل إلى داخل المدينة. كذلك انسحب شمس الدين بن شرف الدين إلى حصن كوكبان مضعفاً بذلك فرص حماية صنعاء من مهاجميها(٢٠).

أمام هذا التخاذل من قبل إخوة المطهر، وأمام ثقل الحصار العثماني للمدينة، آثر المطهر الانسحاب من صنعاء إلى منطقته الحصينة ثلا، فسقطت صنعاء بعد سبعة أيام من الحصار الشديد. وقد آثر إزدمر باشا متابعة المطهر إلى ثلا وحصاره لإخضاعه لسلطان العثمانيين، إلا أن المطهر نجح في الصمود أمام القوات العثمانية المحاصرة، مما اضطر إزدمر إنهاء الحصار والعودة إلى صنعاء بعد إبرامه اتفاقاً مع المطهر(٢١).

كان هذا الاتفاق أشبه ما يكون بهدنة مؤقتة بين الطرفين، فقد استشعر إزدمر مدى خطورة بقاء المطهر بن شرف الدين مسيطراً على منطقة ثلا دون إلحاق هزيمة ما به، لذلك ما لبث أن راسل السلطان العثماني يطلب منه مدداً عسكرياً لتحقيق غرض إخضاع المطهر للسلطة العثمانية، أو إزاحته كليةً من مسرح الأحداث. وقد أجابه السلطان العثماني بذلك فأمده بثلاثة آلاف بندق وألف فارس من مصر، على رأسهم أمير الحج المصري مصطفى باشا النشار الذي حمل معه إلى بلاد اليمن خطاباً من السلطان العثماني إلى المطهر يحمل في طياته تهديداً وترغيباً للمطهر لإعلان طاعته للعثمانيين. ولما لم تؤد المراسلات التي تمت بين مصطفى

النشار وبين المطهر إلى نهاية يرتضيها الطرفان، زحفت القــوات العثمانيــة مــرة أخرى إلى منطقة ثِلا، وبعد حصارها حصارا شديدا ، أدرك كل من إزدمــر باشــا ومصطفى النشار عدم إمكانية إسقاط هذا الحصن، فآثرا عقد صلح مــع المطهــر، وعُقد الصلح بين الطرفين على أن يسلم المطهر للدولة العثمانيــة منطقــة الطويلــة وحصونها، مقابل أن يحافظ المطهر على بقية ممتلكاته، ويعقد له لواء شريفاً(٢٢).

لقد نجح العثمانيون في هذه المرحلة من مراحل سيطرتهم على بــلاد الــيمن في إحكام السيطرة على صنعاء وأغلب المدن والمناطق الهامة الداخلية، عــدا تلــك التي تدخل تحت سيطرة المطهر، وقد هيأت لهم الهدنة مع المطهــر انتــزاع أحــد الحصون المهمة داخل أراضي المطهر، ألا وهو حصن الطويلة بما يعنيه هذا مــن دخول منطقة المطهر اسمياً تحت سلطانهم.

ومما يلاحظ على الصراع الزيدي العثماني في هذه المرحلة من مراحل حكم العثمانيين لبلاد اليمن أن الجبهة الزيدية المتمثلة في الإمام شرف الدين وأبنائه كانت جبهة قوية متماسكة في بداية الصراع أي في مرحلــة ســيطرة العثمــانيين علــى السواحل اليمنية ١٥٣٨-١٥٤٦م. وأن هذه الجبهة اعتراها الضعف والتفكك ابتــداءً من سنة ١٥٤٦م حينما دعا المطهر العثمانيين للقدوم إلى صنعاء وإسقاط حكم أبيــه فيها. بل أن هذا الضعف والتفكك استمر بعد ذلك، على الرغم من إبرام الصلح بــين المطهر ووالده لمواجهة الزحف العثماني على صنعاء. فنجد أن الإمام شرف الــدين وابنه شمس الدين أصبحا مؤيدين وموالِيين لأزدمر في حربه مــع المطهــر ففــي ١٥٤٩م طلب شمس الدين من أزدمر مهاجمة مواقــع المطهــر، فقــام أزدمــر بمحاصرة منطقة بيت عز القريب من كوكبان لوقوعها ضمن مناطق المطهــر بــن شرف الدين. وقد مكن هذا الخلاف ازدمر من أن يتعامل مع الخارجين على طاعــة العثمانيين من الأمراء الزيديين بصفة منفردة فهذا عز الدين بن شرف الــدين يلقــي القبض عليه بعد أن تهاجم منطقة نفوذه، ويرسل أسيراً إلى الأستانة دون أن يــنهض أحد من إخوته لنجدته، كذلك ترك المطهر قبيل عقد الصلح مع العثمانيين وحيداً في

٤٦

مواجهة العثمانيين، إلا من بعض الخلصاء من أبناء أسرته كمحمد بن شمس الدين وبعض زعماء القبائل الموالية له.

من هذا يمكن لنا أن نخلص إلى أن النظرة إلى هذا الصراع على أنه صراع عقدي مذهبي قد تكون نظرة جانبها الصواب والأولى أن يدرس هذا الصراع على أنه صراع دولة تريد التوسع على حساب أمراء محليين يرغبون تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه من سلطان، سواءً كان ذلك تحت تبعية الدولة العثمانية أم كان غير ذلك.

ومما لا جدال فيه أن المطهر بن شرف الدين كان أبرز الأمراء الذين شكلوا خطراً حقيقياً على النفوذ العثماني في بلاد اليمن. فعلى الرغم من أن العثمانيين في عهد أزدمر باشا كانوا قد نجحوا في فرض سلطانهم على بعض من بلاد المطهر – منطقة الطويلة – وإبرام صلح معه تعهد فيه بعدم الخروج على الطاعة، إلا أن سوء سياسة الولاة العثمانيين الذين خلفوا أزدمر باشا كان دافعاً للمطهر لأن يعد العدة لقيادة الزيديين خاصة واليمنيين بصفة عامة ضد الوجود العثماني في اليمن. ولعل الشرارة التي أشعلت تمرد القبائل اليمنية على العثمانيين كانت تولي الوالي رضوان باشا أمور ولاية اليمن. فعلى غير ما جرت عليه عادة من سبقوه من ولاة، لم يعمل رضوان باشا على تجديد أو إقرار الصلح المعقود بين العثمانيين والمطهر، بل على العكس من ذلك أرسل رسوله إلى المطهر ليخبره بتغييره للقواعد التي بني عليها الصلح بين الطرفين[٢٣]. الأمر الذي أدى إلى توتر العلاقات بين المطهر وبين رضوان باشا. فأخذ المطهر بن شرف الدين في إرسال رسله إلى شيوخ القبائل اليمنية وبعض وجهاء اليمن يزكي فيها أحاسيسهم بمدى الظلم الذي يمارسه العثمانيون عليهم[٢٤] وكان رضوان باشا، بضغط من الأوضاع الاقتصادية التي واجهته، قد قام بزيادة الضرائب على بعض الفئات اليمنية التي كانت تعامل معاملة خاصة من الولاة الذين سبقوه، وعلى رأس هؤلاء طائفة الإسماعيلية[٢٥].

وقد دفعت هذه السياسة بعض هؤلاء الإسماعيليين للتحالف مع المطهر ضد العثمانيين. يضاف إلى هذا أن الممارسات العثمانية الخاطئة من بعض الجند وبعض الولاة كشرب الخمر والزنا والسرقات والغدر بالوعود إلى غير ذلك من الممارسات التي تتنافى مع الإسلام وتقاليد المجتمع اليمني، أثارت شعوراً عاماً من السخط والاستياء لدى اليمنيين من الوجود العثماني في بلادهم.

ومما زاد في إضعاف سيطرة العثمانيين على بلاد اليمن، السياسة التي انتهجها العثمانيون بدءاً من سنة ١٥٦٤م – وعملاً باقتراح والي مصر محمود باشا – بتقسيم ولاية اليمن إلى قسمين منفصلين، وتخصيص وال مستقل لكل قسم، الأمر الذي أدى إلى فرقة في الصف العثماني في الولاية وتزعزع ولاء الجند العثماني ما بين وال وآخر(٢٦).

ففي سنة ١٥٦٦م أعلن المطهر خروجه على طاعة العثمانيين، فأرسل الرسل إلى جميع البلاد يخبرهم بذلك ويحثهم على مناصرته ضد الوالي العثماني. كما أنه وجه ابن أخيه الحسين بن شمس الدين على رأس قوة إلى بلاد الظاهر، نجحت في إلحاق الهزيمة بقوات العثمانيين هناك واضطرتهم للانسحاب إلى عمران، كذلك سير المطهر قوة بقيادة كل من السيد أحمد بن الحسين المؤيدي والأمير محمد بن ناصر الحمزي حيث نجحا في السيطرة على صعداء، كما نجح محمد بن شمس الدين بإيعاز من عمه المطهر في التصدي لمحاولة العثمانيين السيطرة على جبل خولان، بل إن محمداً أحرز نصراً على العثمانيين حين سيطر على حراز وأجبر الحامية العثمانية على الجلاء إلى صنعاء(٢٧). إزاء هذه الانتصارات الزيدية طالب رضوان باشا المطهر بعقد هدنة بين الطرفين، ووافق المطهر على طلب رضوان هذا، حيث عقدت الهدنة، أجاز فيها رضوان باشا المطهر بن شرف الدين بالحفاظ على ما سقط تحت يديه فكان أن دخلت كل من نهم وخولان، والجدا وذي مرمر، والخشب والظواهر، وحراز، وحفاش،وملحات، تحت سيطرة المطهر، كما أطلق العثمانيون – كتعبير على حسن نواياهم تجاه المطهر – بعض الرهائن المحتجزين في سجون

العثمانيين[٢٨]. وقد انتهز المطهر فرصة ارتحال رضوان باشا إلى الآستانة فزحف على صنعاء وحاصرها. وعندما هب مراد باشا - الوالي العثماني على الجزء الأسفل من بلاد اليمن - لفك الحصار عن صنعاء، منيت قواته بهزيمة ماحقة فتت من عزم القوات العثمانية، وشجعت اليمنيين بمختلف طوائفهم للمجاهرة بمناصرة المطهر[٢٩]. وتفاقم الأمر على العثمانيين لدرجة أن الوالي العثماني مراد باشا قد لاقى حتفه حينما حوصر بجيشه من قبل رجال القبائل اليمنية وأجتز رأسه وأرسل إلى المطهر[٣٠]. وبمقتل مراد باشا استسلمت الحامية العثمانية في صنعاء، فدخلها المطهر منتصراً سنة ١٥٦٧م[٣١].

وقد عمد المطهر إلى استكمال سيطرته على بعض المناطق الهامة، فسير الأمير قاسم بن الشويع إلى عدن فسيطر عليها، كما سيطر على ريمه، ووصاب، وبرع، وأكثر تهامة وجازان وبيت الفقيه[٣٢]. ولم يبق في يد العثمانيين إلا منطقة زبيد حيث نجح الوالي العثماني حسن باشا في الدفاع عنها ضد هجمات القوات الزيدية[٣٣].

لقد أعقب هذا المد الزيدي مداً عثمانياً بدأ بنجاح حسن باشا، كما ذكرنا آنفاً في الدفاع عن الوجود العثماني في مدينة زبيد، وتلاه وصول المدد من السلطان سليمان القانوني قوامه ثلاثة آلاف جندي بقيادة عثمان باشا ابن ازدمر باشا وقد نجح العثمانيون بفضل هذا المدد من السيطرة على مدينة تعز ومحاصرة الحامية الزيدية في حصن القاهرة والحاق الهزيمة بجيوش المطهر التي أرسلها لفك الحصار عن هذا الحصن[٣٤] وكان في وصول الوزير سنان باشا على رأس قوة كبيرة إلى اليمن سنة ١٥٦٨م، نهاية للسيطرة الزيدية على جميع المناطق التي كانوا قد انتزعوها من أيدي العثمانيين. فكان أن عادت كل من عدن، وجازان، وذي جبله إلى طاعة العثمانيين في سنة ١٥٦٨م، وفي سنة ١٥٦٩م سقطت مدينة إب، وبعدان، وغيرها من المناطق. وانحصرت المقاومة الزيدية على الغالب في منطقتي ثلا،



وكوكبان،وعلى الرغم من محاولات سنان باشا المتكررة إسقاط هاتين المنطقتين، إلا إنهما استعصتا عليه لحصانتهما الطبيعية، ولتمكن المطهر من مباشرة قيادة المقاومة في ثلا والاتصال والتنسيق مع ابن أخيه محمد بن شمس الدين في كوكبان. إلا أن الأخير بعد أن اشتد عليه الحصار آثر عقد هدنه مع سنان باشا، وتم الصلح بين الطرفين سنة(١٥٦٩م) وقد كان هذا الصلح تمهيداً للصلح بين المطهر وبين سنان باشا الذي أنهى حالة الحرب بين الطرفين،وقد أظهر هذا الصلح أن اليد العليا كانت للعثمانيين حيث أن المطهر أذعن لشرطهم في أن تظل قوة عثمانية في منطقة الطويلة التي كانت ضمن أملاك المطهر، في مقابل أن يحتفظ بما تحت يديه في ثلا(٣٥).

مما سبق يمكن لنا أن نخلص إلى أن الزيديين كانوا قبيل مقدم العثمانيين جبهة موحدة تحت لواء الإمام شرف الدين، ثم ما لبث وأن دب الانقسام في صفوفهم، وقد يكون هذا من نتائج التفوق العثماني العسكري، ثم ما لبث وأن نجح المطهر بن شرف الدين في توظيف تخبط السياسة العثمانية في بلاد اليمن لتحقيق بعض المصالح الشخصية التي اتفقت مع مصالح القبائل اليمنية في التمرد على الحكومة القائمة، والسؤال الذي يتبادر إلى ذهن الباحث في هذا المجال هو : **ما مدى تفاعل القبائل اليمنية عامة مع أهداف القيادة الزيدية؟.**

كما رأينا فإن الزيديين نجحوا – قبيل قدوم العثمانيين – من فرض سلطانهم بقوة السلاح على أغلب المناطق اليمنية. إلا أن قدوم العثمانيين سنة(١٥٣٨م) إلى اليمن قد حرمهم من هذه الهيمنة، وصعب معه مهمة الباحث في الحكم على مدى تقبل اليمنيين كافة لحكم الزيديين وذلك لقصر فترة حكم الأخيرين على المناطق الشافعية وغيرها مما وقع تحت حكم العثمانيين. غير أنه يمكن لنا الزعم بأنه على ضوء العلاقات الزيدية – اليمنية على مر التاريخ الحديث، يمكننا الذهاب مطمئنين إلى الاعتقاد بأن الحكم الزيدي في مناطق الهيمنة الشافعية والإسماعيلية لابد وأن يكون مرفوضاً اعتباراً من سياق الأحداث التاريخية إبان سيطرة الزيديين عليها في



تالي العهود (الإمام إسماعيل بن القاسم ومن خلفه)، ولعل الاختلاف المذهبي في هذا الإطار لعب دوراً رئيساً في رفض المناطق الشافعية أو الإسماعيلية للهيمنة الزيدية.

من هذا المنطلق يمكن لنا الزعم أن المطهر بن شرف الدين قد نجح باقتدار مشهود له في توظيف التمرد المعتاد للقبائل اليمنية على الحكومات إبان فترات الضعف أو التخبط السياسي لخدمة مصالحة الخاصة، فالقبائل اليمنية في معظمها تعودت خوض الحروب لتحقيق مكاسب مادية آنية، وفي المقابل فالمطهر بن شرف الدين كان يهدف ويتوق إلى مد سلطانه وتوسيعه إلى أكبر مدى ممكن، ولن يتأتى له ذلك إلا على حساب العثمانيين. إذن لم يكن هدف القبائل الثورة على العثمانيين لتخليص اليمن من حكم العثمانيين، بقدر ما هي ترجمة للمصالح الخاصة لهذه القبائل والمتمثلة في غنائم الغارات على المدن والقرى الآمنة. ولا يستطيع الباحث الاطمئنان كثيراً إلى أن دوافع المطهر لحرب العثمانيين كانت دوافع قومية أو وطنية بقدر ما هي إصطياد فرص لاحت لتحقيق كسب سياسي أو عسكري بتوسيع أرجاء ممتلكاته الخاصة.

وقد نجح المطهر بن شرف الدين في توظيف تمرد القبائل هذا ليبدو وكأنه ثورة عارمة من جموع اليمنيين ضد الحكم العثماني حتى تأتمر القبائل بأمره فتثور إن ثار وتخمد إن أمر بذلك!!

ولعله من الإنصاف أن نقول أن هذا يمثل جزءاً من حقيقة التمرد على الحكم العثماني، إذ أن كثيراً من القبائل الزيدية كانت ترى في المطهر بن شرف الدين خير من يقودها لتحقيق ما تصبو إليه من مكاسب مادية، فلماذا لا تأتمر بأمره؟ كذلك الحال مع القبائل اليمنية غير الزيدية والتي لا ترى في أئمة الزيديين وأمرائهم قادة لها، وإنما قد تدفع المصالح الخاصة هذه القبائل والجماعات للتغاضي عن هذا الأمر، فاندفعت معظم هذه القبائل في نفس الاتجاه الذي اندفع إليه المطهر، إلا أنها كانت تختلف في أهدافها. وبدا وكأن هذا التمرد ثورة عارمة من اليمنيين لتصفية الوجود العثماني في اليمن. ولعل عدم الاشتراك في الأهداف يفسر السرعة التي نجح بها العثمانيون استعادة ما سلب منهم، وذلك لتقاعس القبائل وتشرذم القيادات اليمنية.

بسم الله الرحمن لرحيم

نظام الحكم العثماني في اليمن :-

النظام الضرائبي في اليمن ابان الحكم العثماني:

يعتبر هذا النظام من أهم أسباب نقمة اليمنيين على العثمانيين.

- كان اليمنيون أمام سلطتين رئيسيتين كل تدعي حقوق بالزكاة والعشور. السلطة العثمانية وسلطة الأئمةالزيديين.
- الإمام اعتاد أن يأخذ من الزيديين :- أعشار الأرض نقدا،زكاة المواشي،والدواجن،والدواب،وزكاة التجارة، والمخازن،ثم الزكاة الأصلية (ومنها زكاة الفطر ، زكاة البدن ،، وزكاة الحلي من ذهب وفضة، يضاف اليها إعانة الجهاد أثناء الحروب.
- كانت هناك رسوم إضافية يدفعها اليهود للإمام باعتبارهم ذميون عليهم دفع الجزية.
- كل هذه الزكازات كانت تدفع لبيت المال الذي له فروع في كل الأقضية، يضاف الى هذا كله من الدخول ، دخول الجمارك ورسوم القوافل.اذ أن كل من كان يدخل الى صنعاء من عدن او من الحديدة كان يدفع رسما معلوما على كل جمل وكل دابة محملة ومن هذه الدخول كان الإمام ينفق على مظاهر حكمه بينما كان بيت المال لا يصرف منه الا القليل.
- كانت هذه الضرائب مثار تذمر اليمنيين وشكواهم.
- عندما تولى العثمانيون تولوا هم جمع الزكوات بدلا من مأموري الإمام.
- كان على العثمانيين أن يعملوا على تغطية نفقات الحكومة من دخل الولاية.
- كان عليهم ان يقيموا بعض المرافق العامة التي تخدم مصلحة الأتراك بصفة خاصة واليمنيين بصفة عامة.
- ظهر كثير من الولاة الذين استغلوا هذه الضرائب لمصالحهم الخاصة واستبدوا في تحصيلها بشتى الطرق واعنف الوسائل.
- يصف نزيه مؤيد العظم الذي زار اليمن في الأربعينات من القرن العشرين " ان محصل الضرائب الثماني كان يذهب الى قرية من القرية ويأخذ ما يمكن له تحصيله من الضرائب من الأهالي الفقراء سواء كان على هيئة أموال أو عينيات دون أن يعطي الأهالي سند تحصيل ليكون الأهالي عرضة لمن يأتي بعده للتحصيل فاذا رفض الأهالي بحجة أنه سبق لهم الدفع رفع الى الأستانة على أنهم عصاة فجردت عليهم الحملات العسكرية التي تحيل قراهم الى أثر بعد عين.

الوجود البريطاني على السواحل اليمنية :-

- بدأ الوجود البريطاني على السواحل اليمنية من خلال نشاط شركة الهند الشرقية الإنجليزية سنة ١٦٠٩ .
- أرسلت الشركة السفينة اسكنسن بقيادة الكابتن شاربي الى عدن بغرض اقامة علاقة تجارية مع الجزيرة العربية.، كان العثمانيون هم الحاكمون في اليمن فوقفوا موقفا سلبيا من هذا النشاط التجاري الإنجليزي بل أنه وقفوا موقفا عدائيا،نجلى ذلك في القاء القبض على الكابتن شاربي ، ومصادرة شحنة سفينته.على أن الكابتن شاربي سرعان ما أطلق سراحه.
- لم يدفع هذا الموقف العدائي الشركة لأن توقف محاولاتها ، ففي العام التالي سنة ١٦١٠م ارسلت الشركة الأميرال هنري ميدلتون في رحلة تجارية للبحر الأحمر فزار عدن ،المخا،وفي هذه السنة الأخيرة رحب به حاكمها ، ألا أن بعض الأتراك هاجموا السير ميدلتون وقتلوا ثمانية من أعوانه ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة على السفينة، وعندما أرسل السيد ميدلتون الى صنعاء اطلق سراحه من قبل الوالي بعد صدور الأوامر من الاستانة له.



- شهد العام ١٦١٢م قدوم بعثة بريطانية بقيادة الكابتن جون ساريس لزيارة المخا، حيث رحب به حاكمها واعتذر عما حدث ليمدلتون سنة ١٦١٠م،وأفاده بأن الأوامر صدرت بالسماح للأجانب والسفن الهندية بالتجارة بحرية على الشواطئ اليمنية .
- يبدوا أن هذه السنة هي التي شهدت بداية تغلل النفوذ التجاري البريطاني في السواحل اليمنية.



بسم الله الرحمن الرحيم

الوجود الغربي على السواحل اليمنية

- بداية من القرن السابع عشر الميلادي دخلت الدولة العثمانية طور الضعف والتحلل.
- بيد أن هذا الطور كان طويلا وبطيئا في مسيره وسوف لن تظهر آثاره واضحة إلى مع منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.
- في الوقت ذاته شهدت الساحة الدولية تزايدا للنفوذ والنشاط الأوروبي الإستعماري في مناطق الشرق.
- تزايد النشاط التجاري الأوروبي في البحار الشرقية حتى شمل كل جزء من أجزاء المحيط الهندي.
- وكان لبريطانيا نصيب الأسد من هذه الهيمنة التجارية عبر شركة الهند الشرقية البريطانية، وتعددت شركات الهند الشرقية فمنها البريطانية والهولندية والفرنسية.
- صاحب نشاط هذه الشركات التجارية إزدهار موانيئ باليمن على حساب موانيئ أخرى كانت معروفة بإزدهارها ،ومن أهم هذه الموانيئ ميناء المخا.
- كان هذا الميناء المصدر الأساس لتجارة اليمن ؛ حيث كانت تصل السفن الأوربية التجارية لتفرغ حمولاتها من الحديد والملابس نوالرصاص ،وغيره من المنتجات الأوربية،وتحمل معها في طريق عودتها المنتجات اليمنية التي تصر البن قائمتها في مستهل القرن السابع عشر الميلادي.
- ففي العام ١٦٠٩ وصلت السفينة البريطانية اسكانسن التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية الى المخا محملة بالحديد والرصاص والملابس في محاولة لإفتتاح وكالة تجارية للشركة في ميناء المخانبيد أن موقف حاكم المخا التركي العدائي من السفن الغربية حال دون تحقيق هذه المهمة.
- عاودت الشركة محاولتها في السنة التالية عبر إرسال الكابتن هنري ميدلتون ، غير أنه سجن على يد حاكم المخا ، ثم أطلق سراحه من قبل الوالي جعفر باشا ، وسمح للشركة بالمتاجرة على السواحل اليمنية في النهار على أن يعود البحارة الى سفنهم مع حلول المساء.
- أوضح السير هنري ميدلتون أن المناطق الدخلية في اليمن كانت تحت النفوذ الأسمي العثماني ، حيث كان شيوخ القبائل هم المتحكمون فعليا ف بالمناطق لداخلية ، وأن العثمانيين لا يستطيعون التحرك بحرية إلا إذا كان يصحبهم مندوب عن شيخ القبيلة.
- أما شركة الهند الشرقية الهولندية فقد تركز نشاطها في جزر الهند الشرقية بشكل أكثر وضوحا.
- تمكنت الأساطيل الهولندية أن تفرض نشاطها في تلك المناطق تارة بالطرق السلمية وتارة بقوة السلاح.
- حاول الهولنديون إقامة وكالات تجارية على الساحل اليمنية لكن ظلت الأستانة ممانعة لمثل هذا النشاط لما قد يتمخض عنه من تديد للأماكن المقدسة.
- في ٣٠ اغسطس من عام ١٦١٤ القت السفينة النساو بقيادة بيتر فان دن بروكه مرساتها امام عدن بيد ان حاكم الميناء العثماني طلب منهم البعاد عن الميناء ولم يسمح للتجار الهولنديون بالمتاجرة على السواحل اليمنية إلا بع الحصول على إذن مسبق من السلطان العثماني.

- وعلى الرغم من أن بيتر فون بروك نجح في سنة١٦٢٨م من شراء ما مجموعه ٤٠ بالة من البن اليمني إلا أنه عجز عن تصريف بضاعته نتيجة للحرب التي كانت دائرة بين العثمانيين واليمنيين.
- في عام ١٧٠٩ وصل الفرنسيون عبر شركتهم التجارية الى سواحل اليمن
- كان هذا في عهد الإمام صاحب المواهب الذي كان مريضا فطببه الفرنسيون ،وتوثقت العلاقات بين الطرفين إلى أن توترت لاحقا عندما رفض حاكم المخا دفع ما عليه من ديون للشركة الفرنسية.
- قام الفرنسيون بقصف المخا بالمدافع حتى أذعن الحاكم لشروطهم وسدد ما عليه من ديون علاوة على تخفيضه للضرائب التجارية.
- على الرغم من أن العثمانيين كانوا قد غادلروا اليمن ،إلا أن السلطان العثماني طالب إمام اليمن بعدم المتاجرة مباشرة مع الغربيين بيد أن الإمام لم يستجب لطلبه.

الحكم الزيدي:-

في القرون الثلاثة الأخيرة من الحكم الزيدي سكن قليل من الأئمة صنعاء واتخذوها حاضرة لهم.

فالقاسم بن محمد ومن بعده محمد بن القاسم اتخذا من شهارة الواقعة الى الشمال من صنعاء عاصمة لهما بينما اتخذ المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم من ضوران عاصمة له . أما الإمام المهدي احمد فقد اتخذ من غيراس الى الشمال الشرقي من صنعاء عاصمة له.

و عندما تولى المتوكل المولود في صنعاء سنة ١١٢٨/١٧١٦م اتخذها عاصمة له وكذلك فعل من جاء بعه من الأئمة حتى مغادرة الهادي غالب لها في ١٢٦٦هـ/١٨٥٢م

وفي فترة الإضطراب السياسي وفترة حكم العثمانيين الثانية ١٨٧٢-١٩١٨م لم يتخذ أي من الأئمة صنعاء حاضرة له حتى مجيئ الإمام يحيي اليها سنة ١٩١٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

تأريخ اليمن الحديث

تمهيد:-
- طبيعة اليمن الجغرافية
- المذهب الزيدي

الباب الأول :-

القوى الدولية في البحار الشرقية :-
- البرتغاليون
- المماليك
- العثمانيون

الحكم العثماني لليمن (1538م-1635م)
- سيطرة العثمانيين على السواحل اليمنية (1538م)
- حملة سليمان باشا الخادم
- التغلغل العثماني في المناطق الداخلية لليمن
- طبيعة الحكم العثماني لليمن
- موقف اليمنيين من الحكم العثماني
- تمرد المطهر بن شرف الدين
- ثورة الإمام القاسم بن محمد،وخروج العثمانيين من اليمن

الباب الثاني
- الأسرة القاسمية وسيطرتها على مقاليد الأمور في اليمن:-
  * الإمام القاسم بن محمد
  * الإمام محمد بن القاسم
  * الإمام اسماعيل بن القاسم
  * تدهور سيطرة الأئمة
- الوجود الأوربي في على السواحل اليمنية
- شركة الهند الشرقية الإنجليزية
- شركة الهند الشرقية الهولندية
- شركة الهند الشرقية الفرنسية
- نشاط هذه الشركات و التنافس بينها في السواحل اليمنية
- إستعمار بريطانيا لعدن سنة 1839م
- تنامي النفوذ البريطاني من 1618الى 1839م
- سياسة حكومة عدن البريطانية فيما بعد 1839م
- محمد علي باشا ومشروعه في السواحل اليمنية 1834-1840م

الباب الثالث
- عودة الحكم العثماني لليمن 1849م -1918م
- السيطرة على السواحل سنة 1849م
- السيطرة على المناطق الداخلية 1872م
- المقاومة اليمنية للعثمانيين
  1- الإمام محمد بن يحي حميد الدين
  2- الإمام يحي بن محمد حميد الدين
  3- السيد محمد بن علي الإدريسي

- اليمن في عهد الإمام يحي حميد الدين :-

- فترة حكمه الأولى (1904-1911م)
- فترة حكمه الثانية (1911-1918م)
- فترة حكمه الثالثة (1918- 1948م)

بسم الله الرحمن الرحيم

أوضاع اليمنيين الداخلية قبيل الحكم العثماني للسواحل اليمنية 1849م:-

- - بعد مؤتمر لندن عام 1840م، انسحب المصريون من السواحل اليمنية.

- - سلم إبراهيم باشا يكن الوالي المصري في اليمن مدينة الحديدة التي كانت مركز الحكم المصري في اليمن للحسين بن علي بن حيدر،بناء على الأوامر التي وردته من محمد علي باشا التي سعى إلى تنفيذ مقررات مؤتمر لندن.
- تولى الحسين بن علي بن حيدر حكم المخلاف السليماني واتخذ من أبي عريش عاصمة له.
- أعلن الحسين اعترافه وتبعيته للعثمانيين،وتعهد بأن يدفع سنويا للباب العالي مبلغا من المال.
- سعت الدولة العثمانية لدعم الحسين بن علي بن حيدر تمهيدا لاستعادة سيطرتها على اليمن.
- أرسل السلطان عبد المجيد (1839-1861م) تأييده للحسين عن طريق شريف مكة ،مطلقا على الحسين بن علي بن حيدر لقب حاكم اليمن حسين باشا حتى يضفي علي حكمه الطابع العثماني مشترطا أن تكون الخطبة على المنابر للسلطان العثماني.
- تقبل الحسين بن علي بن حيدر هذه الإجراءات لأنها ستضفي على حكمه شرعية تميزه عن غيره من الحكام المحليين ، كما ستضيف إلى قوته قوة السلطنة العثمانية.
- استقر الحسين في الحديدة ،وأخذ ينظم أمورها بأسلوبه الخاص ، كما بدأ في توسيع دولته في تهامة.
- امتد حكمه في تهامة من المخلاف السليماني شمالا إلى ميناء حيس في الجنوب.فسيطر على كل من زبيد ومخا وحيس.
- شيد الحسين بن علي بن حيدر قلعة منيعة في أبي عريش نقل إليها العديد من التحف والنفائس ،كما أقام بها مكتبته الخاصة العامرة التي تحتوي على 300 مجلد.
- كان الصراع في وسط الهضبة اليمنية محتدما بين المرشحين للإمامة ،الذين كانت تراودهم أحلامهم بالسيطرة على تهامة باعتبارها من مناطق نفوذ آبائهم وأجدادهم.
- التجأ اليه أحد الأئمة المتصارعين على الإمامة وهو الإمام محمد بن يحيى بن المنصور ضد منافسه عبدالله بن المتوكل.احمد في صنعاء.
- رأى الحسين أن في مساعدة الإمام محمد بن يحيى ما يحقق مطامحه التوسعية في المناطق الداخلية لليمن.
- جند الحسين قواته لمناصرة الإمام محمد بن يحيى.
- تمكن الإمام محمد بن يحيى بفضل هذا الدعم من السيطرة على صنعاء،وكنوع من رد الجميل أهدى محمد بن يحيى للحسين مكتبة تحتوي على مجموعة من المخطوطات النفيسة للحسين كان الإمام محمد بن يحيى قد انتزعها من منافسه، وكان الحسين شغوفا بجمع الكتب .
- دب الخلاف بين الحاكمين عندما رأى الإمام محمد بن يحيى أن الحسين كان يسيطر على مناطق في وسط الهضبة كانت يجب أن تخضع لممتلكات الإمام ، وأن الإمام محمد بن يحيى إنما التجأ الى الحسين مضطرا لإستخلاص هذه المناطق ،وأن الإمام قد رد الجميل للحسين بإهدائه المكتبة التي أشرنا اليها سابقا.
- اتصل الإمام محمد بن يحيى بالقبائل المعادية للحسين في تهامة وتعاون معهم في مهاجمة جيش الحسين.
- كانت قبيلة همدان بانتمائها الزيدي خير داعم لالإمام محمد بن يحيى.

- تمكن الإمام من هزيمة جيش الحسين بل تمكن من أسره.
- رفض الإمام يحيى إطلاق سراح الحسين مقابل أمواله وممتلكاته ، إلا أن إخوة الحسين تمكنوا من استخلاصه من الأسر بعد أن استعانوا بقبائل يام من نجران.والتي كانت معروفة بتعاونها مع أشراف آل خيرات.
- هكذا تمكن إخوة الحسين من استعادة زبيد وهزيمة قوات الإمام عام 1848م؟ 1264هـ و الذي عاد عن تهامة دون أن يحقق مبتغاه، كما لم يفلح حاكم عسير من استغلال هذه الأحداث لضم تهامة إلى سلطانه.
- سادت البلاد حالة من الاضطراب وعدم الأمن ، الأمر الذي دفع الحسين بالاستنجاد بالسلطان العثماني ليضع حدا لهذا الاضطراب.
- يذكر الواسعي أن الحسين بن علي بن حيدر أرسل للسلطان يطلب منه إرسال من يتسلم من الحسين بلاد تهامة باعتبارها أمانة في عنق الحسين للسلطان العثماني ،وتنفيذا لمطالب تجار وأعيان تهامة الذين رأوا أنه في ظل الحكم العثماني ستنعم البلاد بالأمن والأمان.بعد أن عانت بلادهم جراء الاقتتال بين القبائل الطامعة في سلب المنطقة ونهبها.
- راى السلطان عبد المجيد في هذا الطلب فرصة لا تعوض لاستعادة السيطرة على اليمن..
- أصدر السلطان أوامره لنائبه في الحجاز توفيق باشا وأمير مكة محمد بن عون للمسير الى تهامة والسيطرة عليها.
- سارت قوة مكونة من 3000 جندي من ميناء جدة ووصلت الى ميناء اللحية اليمني واتجهت منه الى الحديدة ، واستقبلها الحسين مهللا ومرحبا.عام 1849م.
- سارع الإمام محمد بن يحيى بالاتصال بالعثمانيين حاثا إياهم بالتقدم إلى صنعاء لإقرار الأمور فيها دون أن يستشير أهل الحل والعقد من الزيديين.
- تجاوب توفيق باشا مع طلب الإمام وسارت قواته مع الإمام محمد بن يحيى الى صنعاء .
- اغتنم الإمام علي بن المهدي غياب الإمام محمد بن يحيى عن صنعاء عند استقباله للعثمانيين على حدود تهامة، وأخذ يعمل على تحريض القبائل على الإمام محمد بن يحيى بحجة أنه باع اليمن للأتراك.
- هاجمت القبائل صنعاء من كل جانب طمعا في المغانم ،وأبادوا معظم رجال الحامية العثمانية بها، بل أن أهالي صنعاء وقفوا ضد العثمانيين ، واحتدم القتال في الشوارع حتى أن توفيق باشا جرح جراحا خطيرة وتم تنصيب الإمام علي بن المهدي إماما في صنعاء بعد هزيمة العثمانيين الذين انسحبوا إلى الحديدة في تهامة.
- القى الإمام علي بن المؤيد القبض على الإمام محمد بن يحيى ومن ثم أعدمه.
- استقر العثمانيون في الحديدة لسهولة اتصالها بموانئ الحجاز ،وعمل توفيق باشا بمساعدة الحسين بن علي بن حيدر على معاقبة القبائل الخارجة على النظام كقبائل اسلم عندا وجه اليها توفيق باشا قوة بقيادة الحسين بن علي بن حيدر .
- ارتحل الحسين الى الأستانة ،ومن ثم الى مكة ليقضي فيها بقية حياته .
- وهكذا عاد الحكم العثماني الى تهامة وسواحل اليمن عام 1849م ، بينما فشلت محاولتهم السيطرة على المناطق الداخلية.

بسم الله الرحمن الرحيم

2008/05/10

الحكم العثماني لليمن:

- جرت عادة العثمانيين إبان حكمهم للولايات العربية منذ مطلع العصور الحديثة على فرض سيطرتهم العسكرية والسياسية دون التدخل في شئون الشعوب وخصوصيتهم وترك الحرية لهم في الاحتفاظ بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وممارسة طقوسهم ودياناتهم بحرية~، لذلك احتفظت اليمن بتنظيماتها القبلية وولاءات قبائلها لزعمائها المحليين.
- أوجد الدين الإسلامي تقاربا ملحوظا بين العثمانيين ورعاياهم في الولايات العربية، بحيث لم ينظر الأهالي في الولايات العربية للعثمانيين على أنهم غزاة أجانب بل إخوة حاكمون، بحكم قوتهم العسكرية.
- بعد سيطرتهم على صنعاء سنة 1872م قاموا بعدد من العمليات العسكرية التوسعية لبسط نفوذهم على معظم أرجاء اليمن. كما قاموا بعدد من المواجهات العسكرية لإخماد الثورات المحلية.
- مارس الولاة العثمانيون قسوة بالغة في تعاملهم مع ثورات القبائل فكانوا يفرضون على الأسرى حمل رؤوس القتلى من إخوانهم، وقد دفعت هذه القسوة إلى تقديم الولاء والطاعة للولاة عن خوف ورهبة لا عن اقتناع ومحبة.
- تعدت قسوة العثمانيين شيوخ القبائل ومحاربيها إلى علماء الدين وأهل العلم.
- قرب العثمانيين إليهم بعض الوصوليين من ضعاف النفوس اليمنيين ورفعوهم إلى أعلى المناصب الإدارية الأمر الذي كان عاملا محرضا لليمنيين على الثورة.
- ظهر بعض الولاة الذين عملوا على نشر العدالة وتهدئة اليمنيين مثل الوالي إسماعيل حقي باشا(1878م)،والوالي عثمان نوري باشا(1890) حيث بذلا جهودا مضنية لنشر العدل ومحاربة الفساد والرشوة وسوء استغلال السلطة.
- أنشأ اسماعيل حقي مكاتب رشدية لمساعدة الأهالي وتعليمهم ، كما انشأ الطوابير الحميدية أو الجندرمة لحفظ الأمن الداخلي والقيام بالخدمات الحكومية في مختلف أرجاء البلاد.
- بعد عزله سنة 1882م تولى الوالي محمد عزت باشا الذي حرص على تأليف قلوب العرب اليمنيين مع الأتراك.
- ومن الولاة العثمانيين الذين يشهد لهم بالعدالة الوالي عثمان نوري باشا حيث التزم بالتواضع الجم الذي ميزه عن غيره من الولاة.
- أدى تفشي الفساد والرشوة بين الموظفين العثمانيين إلا تردي العلاقة بين اليمنيين والأتراك، ولم تجد محاولات الوالي نفعا لتهدئة الأمور. فشهدت خولان وحجة تمردا ومعارك عنيفة بين الطرفين.
- على الرغم من أن العثمانيين حددوا إقامة الأئمة ،وقيدوا تحركاتهم ، إلا أن ثورات الأئمة استمرت،فظلت الأماكن الشمالية تحت سيطرة الإمام المتوكل محسن بن أحمد حتى توفي سنة1878م فتولى الإمامة بعد ستة أشهر الإمام الهادي شرف الدين محمد~.
- أدت الثورات المتكررة ضد العثمانيين والكوارث الطبيعية إلى تردي الزراعة الأمر الذي ترتب عليه قحط ومجاعات واجهها الولاة العثمانيون بسياسات تعسفية سيئة ،وكان المثال الصارخ لمثل هؤلاء الولاة احمد فيضي باشا01885م)

- واجه هذا الوالي هذا القحط بأن أصدر أوامره لجنوده بمهاجمة الأهالي في القرى والمدن وسلب ما بحوزة لتجار والمزارعين من حبوب وأرزاق.
- كما توسع في إهانة العلماء وشيوخ القبائل الأمر الذي ترتب عليه زيادة حقد اليمنيين على الحكم العثماني.
- حدثت اضطرابات متعددة في أرحب وغيرها من المناطق اليمنية .
- لم تجد نفعا الشكاوى المتعددة التي كان يرفعها اليمنيون للباب العالي لأن المتنفذين في البلاط العثماني يحولون دون وصولها للسلطان حفاظا على مصالحهم جراء الرشاوى التي كانت تصلهم من ولاة اليمن.
- قيام نزاع خفي بين السلطة العسكرية في اليمن والوالي العثماني في الغالب إذا ما رفض الوالي السماع لتوصياتهم بمهاجمة مناطق نفوذ الإمام القائم، والعمل على تشويه صورته لدى السلطان.
- عمد كثير من الولاة العثمانيين إلى الظهور بمظهر الأبهة والعظمة إمام اليمنيين حتى يشعروهم بعلو مكانتهم وتميزهم، علاوة على استفزازهم لمشاعر اليمنيين بشرب الخمور والابتعاد عن روح التعاليم الدينية.

النظام الضرائبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الصراع العثماني – اليمني

تميزت الفترة التي حكم العثمانيون اليمن فيها بانها فترة شديدة الإضطرابات ، حيث رفض الإئمة الزيديون منذ البدأ حكم العثمانيين لمناطقهم ، بل تعدى رفضهم للحكم العثماني أن سعوا الى إخراج العثمانيين من اليمن كاملة ، الأمر الذي جعلهم القادة الطبيعيين للثورة اليمنية على الوجود العثماني في اليمن.

أسباب رفض اليمنيين للحكم العثماني:-

1- دفاع الأئمة الزيديين عن أوضاعهم الخاصة في اليمن.
2- عمل العثمانيين إبان حكمهم لليمن على تضييق الخناق على الأئمة الزيديين، وحصر نفوذهم ومحاربة دعاتهم.
3- انتشار الفساد في الدولة العثمانية بصفة عامة واليمن بصفة خاصة الأمر الذي أغرى اعدائها على اعلان التمرد عليها .
4- الممارسات الخاطئة لكثير من الولاة العثمانيين في اليمن والتي يمكن تلخيص أسبابها في عمل هؤلاء الولاة على تحقيق مصالحهم الخاصة، وعدم الإلتفات الى إجراء الإصلاحات التي تهم اليمنيين ، إضافة الى ممراستهم التي تتنافى وما كان يمكن أن يتقبله مجتمع محافظ كالمجتمع اليمني، وارهاق كاهل اليمنيين بالضرائب الجائرة وجمعها من قبل الموظفين العثمانيين بشتى الوسائل العنيفة .
5- سياسة المركزية في الحكم التي انتهجها العثمانيون عقب حركة التنظيمات التي شرعت الدولة في تنفيذها في محاولة منها التخلص من نظام الإلتزام الفاسد في جمع الضرائب.
6- انتهاج العثمانيين لأسلوب العنف والشدة لقمع ثورات القبائل اليمنية
7- إساءة العثمانيين معاملة العلماء اليمنيين اعتقادا منهم أن هؤلاء العلماء يقومون بتأليب القبائل عليهم. (كان الإمام محمد بن يحي حميد واحدا من هؤلاء العلماء الذين اسيئ لهم حيث مكث في السجن قرابة عامين كاملين).
8- تقريب الإدارة العثمانية لبعض الوصوليين من اليمنيين من غير ذوي المكانة في المجتمع اليمني الأمر الذي أثار حفائظ أهل الحل والعقد في اليمن
9- حالة الفقر الذي كانت تعيشه اليمن نتيجة لسوء الإدارة العثمانية ونتيجة للعوامل الطبيعية من قحط وجدب، الأمر الذي دفع الولاة الى مهاجمة دور اليمنيين لإستخراج الحبوب والحنطة ووضعها تحت تصرف الوالي .(احمد فيضي باشا).
10- عدم وصول شكاوى اليمنيين المتكررة الى الباب العالي نتيجة لتسلط الولاة ووقوف المنتفعيم معهم في البلاط العثماني .
11- قضت سياسة العثمانيين المركزية بفصل السلطة العسكرية عن السلطة الإدارية لكي تبقى كلا السلطتين رقيبة على الأخرى ، هذا أدى الى قيام نزيعات عدة بين من يمثلون السلطتين ، الأمر الذي أدى في النهاية الى ضعف الحكم العثماني في معظم الولايات وليس اليمن وحدها.

12- تفشي الرشوة بين المأمورين العثمانيين في اليمن وكبار رجال الدولة في الولاية وفي الأستانة ، الأمر الذي وقف حائلا دون محاولات الإصلاح الجادة. وهذا بطبيعة الحال اذكى من روح الكراهية للحكم العثماني في اليمن.(مثال على الفساد : عقب تولي عثمان باشا أمر ولاية اليمن سنة 1888م حرضه المأمورون الترك الكتابة الى جميع المشايخ في البلاد من تعز وعسير والحديدة وسائر الأقضية مستدعيا اياهم للحضور الى صنعاء في الوقت الذي اشاعوا أن الوالي اراد استدعائهم لترحيلهم الى الأستانةلإقرار الأمن في البلاد، وعندما شاع هذا الخبر أخذ هؤلاؤ المشايخ يوسطون المأمورين لإقناع الوالي بالعدول عن قراره ودفعوا من أجل ذلك الغالي والرخيص، واذا حدث ولم يدفع أحد اليمنيين الرشوة ولم يحضر للقاء الوالي يتعرض منزله لمهاجمة الجند فتصادر امواله وممتلكاته وقد يتعرض للسجن..

13- طبيعة تكوين المجتمع اليمني القائم على الولاء القبلي وبالتالي فشل المحاولات العديدة لإقامة دولة مركزية واحدة تنتظم جميع المناطق.

14- الإختلاف المذهبي بين اليمنيين والعثمانيين.

ثورة الإمام محمد بن يحي:-

بويع بالامامة سنة 1890م بعد وفاة الامام شرف الدين محمد ، خرج من صنعاء خشية على نفسه من العثمانيين

- التفت حوله القبائل لكراهيتها للتعسف العثماني.
- اتخذ من صعدة قاعدة له ، استحوذ على ماكان سلفه شرف الدين قد جمعه من مال ليستعين به على حرب العثمانيين.
- انتقل الى جبال الأهنوم وبدأ بدعوة القبائل لقتال الترك.
- استجابة لدعوة الإمام توجهت القبائل لمحاصرة صنعاء سنة 1891م
- تمكنت القبائل من السيطرة على ظفير حجة، مسور، الشرف، يريم، ذمار، حفاش، ملحان ، الروضة، وغيرها من جهات صنعاء.
- ذكر الواسعي أن المعارك التي حدثت بين الإمام المنصور وبين العثمانيين كانت كثيرة شملت جميع مناطق اليمن حاصر خلالها صنعاء مرتين ولاسر عددا كبيرا من الجند العثمانيين.
- بعد وفاة الوالي اسماعيل حقي باشا ثارت القبائل اليمنية في جميع انحاء اليمن تقريباسنة 1891م.
- حاول العثمانيين اخماد الفتن والثورات بالقوة ، حيث وصل احمد فيضي باشا الى اليمن كقوة دعم للوالي العثماني وتمنك من فك الحصار حول صنعاء ، لكنه لم يتمكن من القضاء على رؤوس الفتنة.كما استعمل السلطان عبد الحميد اسلوب المفاوضات في محاولة لحقن الدماء الا أن هذه المفاوضات لم يسفر عن نتائج ايجابية .

- استمرت الحروب في اليمن وانتهج اليمنيون حرب العصابات المتمثلة في مهاجمة قوافل المؤن والاستيلاء على ما بها ، قطع المؤن عن الحاميات العثمانية،ارهاب الجند بكافة الوسائل التي منها اختطافهم.
- استمرت الأمور بين انتصار وانكسار للإمام المنصور حتى وفاته ليتولى بعده الإمام يحي حميد الدين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الوجود الغربي على السواحل اليمنية

- بداية من القرن السابع عشر الميلادي دخلت الدولة العثمانية طور الضعف والتحلل.
- بيد أن هذا الطور كان طويلا وبطيئا في مسيره وسوف لن تظهر آثاره واضحة إلى مع منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.
- في الوقت ذاته شهدت الساحة الدولية تزايدا للنفوذ والنشاط الأوروبي الإستعماري في مناطق الشرق.
- تزايد النشاط التجاري الأوروبي في البحار الشرقية حتى شمل كل جزء من أجزاء المحيط الهندي.
- وكان لبريطانيا نصيب الأسد من هذه الهيمنة التجارية عبر شركة الهند الشرقية البريطانية، وتعددت شركات الهند الشرقية فمنها البريطانية والهولندية والفرنسية.
- صاحب نشاط هذه الشركات التجارية إزدهار موانيئ باليمن على حساب موانيئ أخرى كانت معروفة بإزدهار ها ،ومن أهم هذه الموانيئ ميناء المخا.
- كان هذا الميناء المصدر الأساس لتجارة اليمن ، حيث كانت تصل السفن الأوربية التجارية لتفرغ حمولاتها من الحديد والملابس نوالرصاص ،وغيره من المنتجات الأوربية،وتحمل معها في طريق عودتها المنتجات اليمنية التي تصر البن قائمتها في مستهل القرن السابع عشر الميلادي.
- ففي العام 1609 وصلت السفينة البريطانية اسكانسن التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية الى المخا محملة بالحديد والرصاص والملابس في محاولة لإفتتاح وكالة تجارية للشركة في ميناء المخانبيد أن موقف حاكم المخا التركي العدائي من السفن الغربية حال دون تحقيق هذه المهمة.
- عاودت الشركة محاولتها في السنة التالية عبر إرسال الكابتن هنري ميدلتون ، غير أنه سجن على يد حاكم المخا ، ثم أطلق سراحه من قبل الوالي جعفر باشا ، وسمح للشركة بالمتاجرة على السواحل اليمنية في النهار على أن يعود البحارة الى سفنهم مع حلول المساء.
- أوضح السير هنري ميدلتون أن المناطق الدخلية في اليمن كانت تحت النفوذ الأسمي العثماني ، حيث كان شيوخ القبائل هم المتحكمون فعليا ف بالمناطق لداخلية ، وأن العثمانيين لا يستطيعون التحرك بحرية إلا إذا كان يصحبهم مندوب عن شيخ القبيلة.
- أما شركة الهند الشرقية الهولندية فقد تركز نشاطها في جزر الهند الشرقية بشكل أكثر وضوحا.
- تمكنت الأساطيل الهولندية أن تفرض نشاطها في تلك المناطق تارة بالطرق السلمية وتارة بقوة السلاح.
- حاول الهولنديون إقامة وكالات تجارية على الساحل اليمنية لكن ظلت الأستانة ممانعة لمثل هذا النشاط لما قد يتمخض عنه من تديد للأماكن المقدسة.
- في 30 اغسطس من عام 1614 القت السفينة النساو بقيادة بيتر فان دن بروكه مرساتها امام عدن بيد ان حاكم الميناء العثماني طلب منهم البعاد عن الميناء ولم يسمح للتجار الهولنديون بالمتاجرة على السواحل اليمنية إلا بع الحصول على إذن مسبق من السلطان العثماني.

- وعلى الرغم من أن بيتر فون بروك نجح في سنة1628م من شراء ما مجموعه 40 بالة من البن اليمني إلا أنه عجز عن تصريف بضاعته نتيجة للحرب التي كانت دائرة بين العثمانيين واليمنيين.
- في عام 1709 وصل الفرنسيون عبر شركتهم التجارية الى سواحل اليمن
- كان هذا في عهد الإمام صاحب المواهب الذي كان مريضا فطببه الفرنسيون ،وتوثقت العلاقات بين الطرفين إلى أن توترت لاحقا عندما رفض حاكم المخا دفع ما عليه من ديون للشركة الفرنسيةز
- قام الفرنسيون بقصف المخا بالمدافع حتى أذعن الحاكم لشروطهم وسدد ما عليه من ديون علاوة على تخفيضه للضرائب التجارية.
- على الرغم من أن العثمانيين كانوا قد غادلروا اليمن ،إلا أن السلطان العثماني طالب إمام اليمن بعدم المتاجرة مباشرة مع الغربيين بيد أن الإمام لم يستجب لطلبه.

الحكم الزيدي:-

في القرون الثلاثة الأخيرة من الحكم الزيدي سكن قليل من الأئمة صنعاء واتخذوها حاضرة لهم.

فالقاسم بن محمد ومن بعده محمد بن القاسم اتخذا من شهارة الواقعة الى الشمال من صنعاء عاصمة لهما بينما اتخذ المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم من ضوران عاصمة له . أما الإمام المهدي احمد فقد اتخذ من غيراس الى الشمال الشرقي من صنعاء عاصمة له.

و عندما تولى المتوكل المولود في صنعاء سنة 1716/1128م اتخذها عاصمة له وكذلك فعل من جاء بعه من الأئمة حتى مغادرة الهادي غالب لها في 1266هـ/1852م

وفي فترة الإضطراب السياسي وفترة حكم العثمانيين الثانية 1872-1918م لم يتخذ أي من الأئمة صنعاء حاضرة له حتى مجيئ الإمام يحيي اليها سنة 1918م

بسم الله الرحمن لرحيم
نظام الحكم العثماني في اليمن :-
النظام الضرائبي في اليمن ابان الحكم العثماني:
يعتبر هذا النظام من أهم أسباب نقمة اليمنيين على العثمانيين.

- كان اليمنيون أمام سلطتنين رئيسيتين كل تدعي حقوق بالزكاة والعشور. السلطة العثمانية وسلطة الأئمةالزيديين.
- الإمام اعتاد أن يأخذ من الزيديين :- أعشار الأرض نقدا،زكاة المواشي،والدواجن،والدواب،وزكاة التجارة، والمخازن،ثم الزكاة الأصلية (ومنها زكاة الفطر ، زكاة البدن ،، وزكاة الحلي من ذهب وفضة.، يضاف اليها إعانة الجهاد أثناء الحروب.
- كانت هناك رسوم إضافية يدفعها اليهود للإمام باعتبارهم ذميون عليهم دفع الجزية.
- كل هذه الزكازات كانت تدفع لبيت المال الذي له فروع في كل الأقضية.، يضاف الى هذا كله من الدخول ، دخول الجمارك ورسوم القوافل.اذ أن كل من كان يدخل الى صنعاء من عدن او من الحديدة كان يدفع رسما معلوما على كل جمل وكل دابة محملة ومن هذه الدخول كان الإمام ينفق على مظاهر حكمه بينما كان بيت المال لا يصرف منه الا القليل.
- كانت هذه الضرائب مثار تذمر اليمنيين وشكواهم.
- عندما تولى العثانيون تولوا هم جمع الزكوات بدلا من ماموري الإمام.
- كان على العثمانيين أن يعملوا على تغطية نفقات الدحكومة من دخل الولاية.
- كان عليهم ان يقيموا بعض المرافق العامة التي تخدم مصلحة الأتراك بصفة خاصة واليمنيين بصفة عامة.
- ظهر كثير من الولاة الذين استغلوا هذه الضرائب لمصالحهم الخاصة واستبدوا في تحصيلها بشتى الطرقن واعنف الوسائلز
- يصف نزيه مؤيد العظم الذي زار اليمن في الأربعينات من القرن العشرين " ان محصل الضرائب الثماني كان يذهب الى قرية من القرية ويأخذ ما يمكن له تحصيله من الضرائب من الأهالي الفقراء سواء كان على هيئة أموال أو عينيات دون أن يعطي الأهالي سند تحصيل ليكون الأهالي عرضة لمن ياتي بعده للتحصيل فاذا رفض الأهالي بحجة أنه سبق لهم الدفع رفع الى الأستانة على أنهم عصاة فجردت عليهم الحملات العسكرية التي تحيل قراهم الى أثر بعد عين.

الوجود البريطاني على السواحل اليمنية :-

- بدأ الوجود البريطاني على السواحل اليمنية من خلال نشاط شركة الهند الشرقية الإنجليزية سنة 1609 .
- أرسلت الشركة السفينة اسكنسن بقيادة الكابتن شاربي الى عدن بغرض اقامة علاقة تجارية مع الجزيرة العربية.، كان العثمانيون هم الحاكمون في اليمن فوقفوا موقفا سلبيا من هذا النشاط التجاري االإنجليزي بل أنه وقفوا موقفا عدائيا،تجلى ذلك في القاء القبض على الكابتن شاربي ، ومصادرة شحنة سفينته.على أن الكايتن شاربي سرعان ما أطلق سراحه.
- لم يدفع هذا الموقف العدائي الشركة لأن توقف محاولاتها ، ففي العام التالي سنة 1610م ارسلت الشركة الأميرال هنري ميدلتون في رحلة تجارية للبحر الأحمر فزار عدن ،المخا،وفي هذه السنة الأخيرة رحب به حاكمها ، ألا أن بعض الأتراك هاجموا السير ميدلتون وقتلوا ثمانية من أعوانه ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة على السفينة، وعندما أرسل السيد ميدلتون الى صنعاء اطلق سراحه من قبل الوالي بعد صدور الأوامر من الاستانة له.

- شهد العام 1612م قدوم بعثة بريطانية بقيادة الكابتن جون ساريس لزيارة المخا، حيث رحب به حاكمها واعتذر عما حدث ليمدلتون سنة1610م،وأفاده بأن الأوامر صدرت بالسماح للأجانب والسفن الهندية بالتجارة بحرية على الشواطئ اليمنية .
- يبدوا أن هذه السنة هي التي شهدت بداية تغلل النفوذ التجاري البريطاني في السواحل اليمنية.

2013/04/21

اليمن بعد خروج العثمانيين 1645-1849م:-

الدولة القاسمية 1635-1962م:-

1. الإمام القاسم بن محمد :-

من المعروف أن الإمام القاسم بن محمد كان قد قضى كل مراحل إمامته في صراع مع العثمانيين عدا الفترات التي تخللها اتفاقات وقتية معهم.

2. الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم :-1009-1054هـ/1602-1644م

- أمضى الجزء الأكبر من فترته في حربه للعثمانيين ، وكان لا يقل كفاءة في إدارة الصراع عن والده القاسم.
- كان\عليه أيضا التعامل حربيا مع القبائل التي عارضت دعوته.
- على الرغم من مشاغله هذه كان يجد الوقت الكافي للكتابة والمطارحات الفكرية كعادة الأئمة الزيديين.

3.الإمام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم : 1054-1087هـ/ 1644-1676م:

- يعتبر عهده أزهى عهود الدولة الزيدية.
- امتد حكم الزيديين حتى شمل حضرموت والشحر وظفار.
- بادله العمانيون العداء بمهاجمة سواحل اليمن ونهب بعض\ما بها من سفن.
- كان علاقاته جيدة مع الهند حيث تبادل الهدايا مع أحد أمراءها(اورانجوزيب).
- كذلك الحال مع ملك الحبشة حيث تبادل البعثات والسفرات.
- ذكر الشوكاني تميز بالعدل والأمن والأمان .

4.الإمام أحمد بن الحسن بن القاسم:1087-1092هـ /1677-1682م:

- استمر حكمه حوالي خمس سنوات
- على الرغم من أنه يعتبر بطل السيطرة على الجنوب الا ان البعض يعتبره بداية تحلل الدولة الزيدية. اصدر أمره بإخراج اليهود من صنعاء حيث سكنوا موزع.كما أن أحد العلماء الزيديين فتى بحرمانية شرب القهوة، فما كان من الإمام إلا معاقبته بالسجن.

5.المؤيد بالله محمد بن إسماعيل بن القاسم :-1092-1097/1681-1686م:-

- بدأ عهده بمشاكل أثارها عليه منافسوه على الإمامة
- اتخذ من صنعاء عاصمة له ثم انتقل الى ضوران.
- في عهده استقلت يافع عن الإمامة وعجز الإمام عن استرجاعها.

6.المهدي محمد بن أحمد بن الحسن1098-1130/1687-1718م

- تلقب أولا بالهادي ثم بالمهدي لكنه يعرف بصاحب المواهب.
- اتخذ من المواهب قاعدة له التي تبعد 3 أميال شرق ذمار
- عندما اعلن إمامته خرج عليه احد اقربائه من آل القاسم وحاصره في المنصورة بالحجرية وكاد المهدي أن يستسلم لقله المياه في قلعته ، إلا أنه ولحسن طالعه سقطت الأمطار فاستعان بها ثم أعد عدته فالقى القبض على آل القاسم المناوئين له وأودعهم السجن.
- يذكر له أنه أنهى فتنة الساحر الذي عمت فتنته في اليمن فأرسل له الجيوش والألوية حتى أنه -=طما يذكر الواسعي أن الدولة تكلفت بسبعين مليونا من الريالات علاوة على عشرين ألف قتيل لإنهاء هذه الفتنة.-

ثم تلى حكم هذا الإمام عدد من الأئمة وهم على التوالي:-

7.الإمام المنصور بالله الحسين بن القاسم بن محمد بن الإمام القاسم بن محمد (ت1131هـ)

8.المتوكل على الله القاسم بن الحسين بن أحمد بن الحسن بن الإمام القاسم (ت 1139هـ)

9.الإمام الناصر بن اسحق بن احمد بن الحسن بن القاسم ، ثم خرج عليه الحسين فسلم له حتى وفاته سنة 1139هـ (ت 1167هـ)

10.الإمام المنصور حسين بن القاسم بن الحسين بن احمد بن الحسن بن القاسم (ت 1140)

11.المهدي عباس بن المنصور حسين بن القاسم (ت1189هـ)

ذكر الواسعي انه كان فاضلا ، مقربا للعلماء واهل الفضل والتدبير ،وأنه نظم الامور على منهاج الشرع وأن له المآثر العظيمة وأن في دولته انتشر الأمن والأمان، وشاع عنه أن له اتصال بالجان لمعرفته أحوال كل صغيرة وكبيرة في البلاد.

12.المنصور بالله علي بن العباس (ت 1224هـ):-

- لم يشتغل باصلاح أحوال دولته إلا بالعماير والإصلاحات في صنعاء
- كان من عاداته الإحتجاب والميل الى مجالسة النساء،فلم يخرج من صنعاء لغزو أو حرب ، فانتقضت عليه التهائم وفقد السيطرة عليها سنة1216هـ.
- خرجت كثير ممن القبائل عن طاعته ، وعمت الفوضى،وكثر السلب والنهب في الطرقات ، وحوصرت صنعاء محاصرة شديدة.

13.عارضه في الإمامة السيد إسماعيل الكبسي، الذي توفي قبل الإمام في ذمار.

14.المتوكل على الله أحمد بن علي بن العباس(ت1231)

- حاول إصلاح ما أفسده والده
- لم يتمكن من استرجاع التهائم التي ظلت في يد الأشراف من آل خيرات.
- كان لا يعزل وزرائه حتى يدركهم الموت الأمر الذي جعل هؤلاء يهتمون بإصلاح أحوال الرعية أكثر من تغليب مصالحهم الذاتية.
- كان مولعا بجمع الكتب والنوادر والنفائس حتى قيل أن عدد الكتب التي وجدت في خزنته بعد وفاته زيادة على مائة الف كتاب.

المهدي عبدالله بن أحمد (1267)

- قام بالأمر بعد والده
- كان ضعيفا لدرجة أنه انتهى به الأمر أن أحد وزراءه عزله وعذبه.
- اختلت الدولة في عهده فكان أن استبد الوزراء بالأمر ، وكان كل وزير يهتم بمصلحته الخاصة على مصلحة الدولة.
- كان كثيرا ما يميل الى الإحتجاب واللهو ومجالسة النساء وترك أمور الدولة لمن هم دونه.
- هجمت قبائل برط من ذي محمد وذي حسين على بئر العزب وبها دور الإمام وعلية القوم ، انتقاما لما قام به الإمام من إباحتهم في صنعاء وأسره لكبرائهم، وقتله لبعض أعيانهم في الأزقة والطرقات.
- في عهده سيطر ابراهيم باشا على المخا وعسير وسواحل تهامة.

الإمام احمد بن علي السراجي (1250)

- **كان إماما كامل الإمامة ، لم يكن من آل القاسم.**
- **اجتمعت له القبائل من كل فج ، وكان مسموع الكلمة لدى الخاصة والعامة لمكانته وفضله.**
- **حاصر المهدي في صنعاء.**
- **تمكن المهدي من شراء ذمم القبائل المحاصرة فتفرقوا عن الإمام السراجي.**
- **رحل الإمام السراجي الى بلاد نهم ومات هناك قيل مسموما .**

علي بن المهدي:-

- **تلقب بالمنصور ودعى لنفسه في شعبان سنة 1251هـ.**
- **ضعفت البلاد في عهده ، حيث كان مبذرا في صرف الأموال ، ولما قاربت خزنته على الإفلاس أخذ يصرف من مدخرات بيت المال.**
- **عزل أمير جنده القوي عنبرن فثار عليه الجند ن ودخلوا عليه داره فعزلوه ونصبوا بدلا منه الإمام الناصر.**

الإمام الناصر عبد الله بن الحسن بن احمد بن المهدي عباس (ت 1256هـ)

- **حاول اصلاح ما أفسده سلفه**
- **كان إماما كامل الإمامة.**
- **لم توافق سيرته المنتفعين بالفوضى السياسية التي كانت في عهد سلفه .**
- **قتل الإمام مع ستة من معه أثناء نزهة كان يقوم بها في وادي ضهر ، حيث خرجت عليه جماعة من همدان وقتلوه.**

محمد بن أحمد بن علي بن العباس (ت 1259هـ)

- **تلقب بالهادي ، وكان مسجونا بسجن الناصر**
- **كان كأخيه مسرفا للمال مضيعا لأحوال الرعية.**
- **ظهر في عهده الفقيه سعيد الذي ادعى أنه المهدي المنتظر، وتمكن الهادي من القبض عليه وقتله.**

علي بن المهدي للمرة الثانية:

- **عاد المهدي الى سيرته الأولى في اللهو وتبذير الأموال ، فخرج عليه الإمام محمد بن يحي بعد إغراء العلماء له بذلك.**

الإمام المتوكل محمد بن يحي بن المنصور علي:

- إبان خروجه على الهادي خرج الإمام محمد بن يحي الى شريف أبو عريش الحسين بن علي بن حيدر ، وكانت مناطق تهامة جميعها بيده بامر من السلطان العثماني، وطلب من المساعد فوعده بها.
- عمل الإمام بعد استتباب الأمر له الى اصلاح أحوال الرعية ،والضرب على أيدي العابثين.
- من اولئك القاضي يحي بن علي الأرياني الذي ظلم اهل صنعاء أيام علي بن المهدي ظلما عظيما.
- أرسل الى الشريف الحسين بن علي بن حيدر بهدية ثمينة(30 خيل ، دروع ،ساعات ،الخ....
- ارجع الحسين بن علي بن حيد للإمام ما كان قد سيطر عليه من مناطق ، من ممتلكات الإمام كتعز وجهاتها.
- راسل جميع القبائل وطالبهم بتسليم العشور فالتزموا له.
- كان من وزراءه يحي بن محمد حميد الدين (جد الإمام يحي حميد الدين)
- صلحت أمور البلاد عما كانت عليه قبله.
- ثارت عليه قبائل الحدا فخرج لقتالها وغرمها 10000 ريال تأديبا لهم.
- ساءت العلاقات بين الإمام والشريف الحسين بن علي بن حيدر سنة1264هـ فقرر الإمام غزو المخلاف واستقطاعها من يد الشريف.
- تمكن الإمام من أسر الحسين والسيطرة على زبيد وبيت الفقيه والمخا.
- حبس الشريف في قلعة القطيع بتهانة يحرسه جماعة من عسكر الإمام أخذ منهم الإمام المواثيق لحفظ الشريف.

- نجح الشريف في شراء ذمم حراسه ب25000 ريال وبعض جند الإمام .
- استنجدت ابنة الشريف الحسين بقبائل يام وكانوا حلفاء تقليديين لأشراف أبو عريش.
- تمكن الشريف بمساعدة يام من أخذ زبيد ن ونهب ما فيها.
- بدأت الأمور تتكالب على الإمام بلاد يريم محمد بن يحي.
- أرسل الإمام الحسين بن المتوكل أحمد ليكون واليا من قبله على بلاد يريم.
- حال وصول هذا الى تلك المناطق أغراه أهلها بمناصرته إذا طالب بالإمامة ففعل وتلقب بالمنصور.
- تمكن الإمام بعد جهد من القاء القبض عليه وسجنه في صنعاء .
- ضعفت أحوال دولته عندما اخذت القبائل تعاند خروجه فلا تخرج معه لقتال ، فكثرت الفتن، وانقطعت السبل ن وتغلبت القبائل .
- اتصل الحسين بن علي بن حيدر بالسلطان العثماني وطلب منه إرسال قوة لتظبط المور في تهامة
ارسل السلطان العثماني قوة بقيادة الوالي توفيق باشا.
- نجحت هذه القوة في ضبط احوال تهامة
- طلب الإمام المتوكل من الوالي العثماني القدوم الفى صنعاء لمعاقبة القبائل التي ازداد فسادها في البلاد.
- سارت القوة العثمانية الى صنعاء الا ان القبائل ، وأهالي صنعاء تمكنوا من الحاق هزيمة قاسية بهم واجبارهم الى العودة الى تهامة.
- عمدت القبائل الى معاقبة كل من اتصل ابلعثمانيين ، كالقاضي العلامة عبدالرحمن بن محمد العمراني، حيث هجم العوام على بيته ونهبوا ما فيه، وهدموه.، وتوجهوا الى بستان السلطان يريدون قتل الإمام فمنعهم العسكر.

14.نصب السيد علي بن المهدي

- بايعه أهل صنعاء على الرغم من أنه لم يكن جامعة لشروط الإمامة.
- تلقب أولا بالمهدي ثم بالهادي
- أودع السيد محمد بن يحي في السجن ثم ضرب عنقه لاحقا بأمر الإمام لأحمد بن هاشم التالي ذكره.
- تدهورت الأوضاع في صنعاء وأصبحت تعيش فوضى عارمة.
- اجتمع أهل الحل والعقد ونصبوا الإمام أحمد بن هاشم.

15. الإمام أحمد بن هاشم:-

- تلقب بالمنصور بالله ، بعث رسائله الى القبائل واتخذ من عمران مستقرا له.
- أجابة دعوته معظم قبائل المناطق الجنوبية من صنعاء الى خولان ويريم وآنس.

الحكم المصري للسواحل اليمنية :-

- بدأ محمد علي باشا هجماته على السعوديين في الحجاز سنة 1813م.
- كان هذا الحدث في أواخر عهد الإمام المتوكل والد المهدي عبدالله.
- نجح محمد علي في استعادة الحجاز لسلطة السلطان العثماني ، غير أنه كان صاحب السلطة الأكبر في الحجاز.
- أثناء حروبه مع السعوديين ، ارسل محمد علي الى حمود أبومسمار يستطلع منه موقفه.
- ومن الثابت تاريخيا ان حمود قلب للسعوديين ظهر المجن وتحالف مع المصريين.
- كذلك راسل محمد علي الإمام المتوكل الذي تقبل بعثة الباشا بالقبول ، ةأرسل محمد علي بعثته الى المخا كذلك ، ولعله كان يخطط لما سيقوم به لاحقا.

- بعد سقوط الدرعية ارسل محمد علي قوة عسكرية الى ابوعريش والسواحل وتمكن من السيطرة عليها باسم السلطان.
- عرض محمد علي باشا على الإمام المهدي عبدالله غعادة السواحل التهامية لسلطته مقابل تعهد الإمام بدفع مبلغ سنوي للسلطان ، اضافة الى كميات جيدة من البن التي كانت الأستانة تستهلك منها كثيرا.
- وافق الإمام على ذلك ، وأرسل لاحقاالامجموعة من عماله الى المناطق التهامية.، وظلت المناطق الشمالية من تهامة (أبو عريش قما يقع شمالها بيد الشريف علي بن حيدربن خيرات.
- سائت العلاقات بين محمد علي باشا والسلطان العثماني حول ولاية الشام.
- عمد السلطان العثماني على إثارة الفتن على محمد علي في الحجاز.
- فكان أن ثار عليه أحد قادته في الحجاز ويدعى تركجه بيلمز.
- سار تركجة بيلمز بمن التحق به من قوات الى الحديدة ، فجهز له محمد علي قوة تبعته الى الحديدة،أثناء مكتابعتها لهذا المتمرد ،نجحت قوات محمد علي في السيطرة على الساحل اليمني باسم محمد علي باشا، ةتمكنت هذه القوات من حصار تركجة بيلمز في المخا سنة 1833م وانهاء تمرده ،بيد أن تركجه بيلمز نفسه تمكن من النجاة بعد أن هرب على ظهر سفينة بريطانية .
- من الجدير بالذكر أن قبائل عسير وقفت الى جوار محمد علي باشا لعدم وضوح أهداف تمرد تركجه بيلمز.

عودة العثمانيين الى السواحل اليمنية سنة 1849م:-

عودة الحكم العثماني المباشرلليمن سنة 1872م:-

الأسباب التي دفعت العثمانيين للعودة الى اليمن :-

- **افتتاح قناة السويس سنة 1869م ، وعودة الأهمية الإستراتيجية لليمن**
- **الإستعمار البريطاني لعدن سنة 1839م**
- **روح الإصلاحات التي واكبت عهد السلطان محمود الثاني ومن خلفه ورغبة المصلحين استعادة هيبة الدولة باستعادة جميع ماكانت قد فقدته الدولة من ولايات.**
- **حركة محمد بن عائض في عسير وتوجه القوات العثمانية للقضاء عليه**
- **أوضاع اليمن المتهالكة واستنجاد أهل الحل والعقد في صنعاء بالقائد العثماني احمد مختار باشا.**

سياسة العثمانيين في اليمن سنة 1872م :-

- ـ اكتفى العثمانيون بفرض سيطرتهم العسكرية والسياسية على اليمن وتركوا للشعب طرق حكمهم التقليدية وذلك بما يتناسب وسيطرتهم عل مقاليد البلاد.
- كانت الشرق العربي جميعه يسوده فكرة الزعامة الدينية لذا وجد العثمانيون من يسوغ لهم شرعيا حكم البلاد.

- كـان الأئمـة الزيـديون علـى أتـم اسـتعداد للاعتـراف بالسـيطرة العثمانيـة إذا اعتـرف العثمانيون لهم بأوضاعهم الخاصة في اليمن.
- قامت سياسة العثمانيين في اليمن بعد 1872م على مبدا تضييق الخناق عل الأئمة من آل البيت، وحصر نفوذهم ، ومحاربة دعاتهم ، وجعلهم في شبه عزلة عن القبائل الداعمة لهم.
- حاولت الدولة التخلص من نظام االإلتزام في الضرائب والذي كان له الأثر الأكبر في سخط الشعب اليمني على الحكم العثماني في فترته الأولى واستبداله بنظامبنظام ضرائبي يقوم على قدرة المكلف على الدفع.
- مارست الدولة في حكمها للمرة الثانية نظاما اكثر مركزية تبعا لما جائت به التنظيمات والتي قضت الى اختصار عدد الايالات او الباشويات الثمانية عشرة الى اربع حاكميات.
- لم يطبق قانون الولايات الذي كان مرعيا إبان عودة العثمانيين لليمن على ولاية اليمن نظرا لظروفها الحضارية والقبلية.
- حسب التقسيمات العثمانية فان ولاية اليمن كانت تضم اربعة ألوية هي: صنعاء ، الحديدة ، عسير ن تعز. وكل لواء يقسم ألى أقضية ونواحي وعزل وقرى.، وكان يحكم اليمن والي عثماني مقره صنعاء ، ويتبعه متصرفون في النواحي الأربعة، والمتصرف يمثل الوالي في حدود اللواء الذي يحكمه ويتبعه قائمقام للأقضية التي تنقسم اليها الألوية.، ويلي هؤلاء مديرون يبسطون نفوذهم على مناطق محدودة داخل الأقضية.
- اشتمل كل لواء على بعض المدن الهامة في اليمن:
- لواء صنعاء يشمل حراز، حجة ، ذمار ،يريم، رداع ، عمران
- لواء الحديدة يضم: زبيد، اللحية، الزيدية ، رية، بيت الفقيه، ، باجل ، ابو عريش.
- لواء عسير يضم:- أبها ، القنفذة
- لواء تعز يضم:- اب ، الحجرية مخا ،قعطبة.

التنظيمات العسكرية:-

- كانت الخدمة العسكرية العثمانية للمسلمين اجبارية لمدة 25 عاما تبدأمن سن 25 سنة، ألا أن أهالي اليمن كانوا معفيين من الخدمة العسكرية.
- كانت اليمن مقر الجيش السابع العثماني
- كانت هناك تشكيلات الجندرمة وهي من ابناء اليمن لحماية الأمن الداخلي.
- وتتفرع منهم فرقة السواري ومهمتها حراسة الموظفين العثمانيين وتصيل البريد وحماية مقار الحكومة

نظام الحكم العثماني في اليمن :-

النظام الضرائبي في اليمن ابان الحكم العثماني:

يعتبر هذا النظام من أهم أسباب نقمة اليمنيين على العثمانيين.

- كان اليمنيون أمام سلطتين رئيستين كل تدعي حقوق بالزكاة والعشور. السلطة العثمانية وسلطة الأئمةالزيديين.
- الإمـام اعتـاد أن يأخـذ مـن الزيـديين :- أعشـار الأرض نقـدا،زكاة المواشي،والدواجن،والدواب،وزكاة التجارة، والمخازن،ثم الزكاة الأصلية (ومنها زكاة الفطر ، زكاة البدن ،، وزكاة الحلي من ذهب وفضة.، يضاف اليها إعانة الجهاد أثناء الحروب.
- كانت هناك رسوم إضافية يدفعها اليهود للإمام باعتبارهم ذميون عليهم دفع الجزية.

- كل هذه الزكازات كانت تدفع لبيت المال الذي له فروع في كل الأقضية.، يضاف الى هذا كله من الدخول ، دخول الجمارك ورسوم القوافل.اذ أن كل من كان يدخل الى صنعاء من عدن او من الحديدة كان يدفع رسما معلوما على كل جمل وكل دابة محملة ومن هذه الدخول كان الإمام ينفق على مظاهر حكمه بينما كان بيت المال لا يصرف منه الا القليل.
- كانت هذه الضرائب مثار تذمر اليمنيين وشكواهم.
- عندما تولى العثنانيون تولوا هم جمع الزكوات بدلا من مأموري الإمام.
- كان على العثمانيين أن يعملوا على تغطية نفقات الدحكومة من دخل الولاية.
- كان عليهم ان يقيموا بعض المرافق العامة التي تخدم مصلحة الأتراك بصفة خاصة واليمنيين بصفة عامة.
- ظهر كثير من الولاة الذين استغلوا هذه الضرائب لمصالحهم الخاصة واستبدوا في تحصيلها بشتى الطرقن واعنف الوسائلز
- يصف نزيه مؤيد العظم الذي زار اليمن في الأربعينات من القرن العشرين " ان محصل الضرائب الثماني كان يذهب الى قرية من القرية ويأخذ ما يمكن له تحصيله من الضرائب من الأهالي الفقراء سواء كان على هيئة أموال أو عينيات دون أن يعطي الأهالي سند تحصيل ليكون الأهالي عرضة لمن يأتي بعده للتحصيل فاذا رفض الأهالي بحجة أنه سبق لهم الدفع رفع الى الأستانة على أنهم عصاة فجردت عليهم الحملات العسكرية التي تحيل قراهم الى أثر بعد عين.

الوجود البريطاني على السواحل اليمنية :-1609م

- بدأ الوجود البريطاني على السواحل اليمنية من خلال نشاط شركة الهند الشرقية الإنجليزية سنة 1609 .
- أرسلت الشركة السفينة اسكنسن بقيادة الكابتن شاربي الى عدن بغرض اقامة علاقة تجارية مع الجزيرة العربية.، كان العثمانيون هم الحاكمون في اليمن فوقفوا موقفا سلبيا من هذا النشاط التجاري الإنجليزي بل أنه وقفوا موقفا عدائيا،تجلى ذلك في القاء القبض على الكابتن شاربي ، ومصادرة شحنة سفينته.على أن الكايتن شاربي سرعان ما أطلق سراحه.
- لم يدفع هذا الموقف العدائي الشركة لأن توقف محاولاتها ، فف العام التالي سنة 1610مارسلت الشركة الأميرال هنري ميدلتون في رحلة تجارية للبحر الأحمر فزار عدن ،المخا،وفي هذه الأخيرة رحب به حاكمها ، ألا أن بعض الأتراك هاجموا السير ميدلتون وقتلوا ثمانية من أعوانه ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة على السفينة، وعندما أرسل السد ميدلتون الى صنعاء اطلق سراحه من قبل الوالي بعد صدور الأوامر من الاستانة له.
- شهد العام 1612م قدوم بعثة بريطانية بقيادة الكابتن جون ساريس لزيارة المخا، حيث رحب به حاكمها واعتذر عما حدث ليمدلتون سنة1610م،وأفاده بأن الأوامر صدرت بالسماح للأجانب والسفن الهندية بالتجارة بحرية على الشواطئ اليمنية .
- يبدوا أن هذه السنة هي التي شهدت بداية تغلل النفوذ التجاري البريطاني في السواحل اليمنية.
- الإستعمار البريطاني لعدن 1839م:-

أسباب استعمار بريطانيا لعدن:-

!- توسط موقعها بين السويس وبمباي

- ـ صلاحيتها للملاحة طوال العام وسهولة الرسوا في مرفئها
- تحركات محمد علي في الجزيرة العربية وخاصة على السواحل اليمنية.
- حادثة السفينة داريا دولت
- رغبة بريطانيا في اتخاذها قاعدة تحمي ممتلكاتها في الهند وساحل الجزيرة وافريقيا.

كيفية استعمار عدن:-

- غرق السفينة داريا دولت أمام شواطئ عدن وكانت تملك السفينة سيدة هندية مسلمة من رعايا بريطانيا العظمى.
- سطا العرب على السفينة الغارقة ونهبوا ما فيها.
- بعثت شركة الهند الكابتن هاينس على مركب حربي عليه 300 جندي طالبة حاكم عدن بالعويض.
- اعتذر حاكم عدن بحجة أن من نهبها كانوا من اللصوص وأنهم تفرقوا في ارض الله.
- في 19 يناير بدأت السفن البريطانية تقصف المدينة بالدافع لمدة ساعتين ، ودافع عنها أهلها دفاعا مستميتا لكن فارق القوى كان لصالح المهاجمين فكانت لهم الغلبة وتمكنوا من السيطرة عليها.
- تم الإتفاق بين الإنجليز وبين حاكم لحج على أن يعترف الحاكم بحكم الإنجليز لعدن مقابل 6000 ريال فكانت هذه بداية المشاهرات البريطانية لحكام المنطقة.
- احتل الإنجليز ما يعرف بالتواهي باسم شركة الهند الشرقية .
- توترت العلاقات بين السلطان العبدلي وبين الإنجليز فتمرد عليهم مرارا ،الأمر الذي دفعه للسيطرة على عدن كاملة واخراجه الى لحج وفرض معاهدة سلام معه تقضي بما يلي :-

  1- ان يعترف السلطان بسلطتهم ويرضى بحمايتهم
  2- ان تكون البلاد مستقلة داخليا استقلالا تاما
  3- ان يكون للسلطان الحق اصدار ما يشاء من قوانين داخليا
  4- ان يكون للسلطان الحق في التعامل مع العرب مباشرة دون تدخل الإنجليز.
  5-الآ يعقد السلطان معاهدات نع الأجانب
  6- ان يكون راية خاصة بسلطنته وجند وحق بمنح الألقاب والرتب.
  7-الا يجوز لأجنبي التملك في لحج أو دخولها بدون اذن من السلطان تعطيه الحكومة البريطانية.

لماذا استعمر البريطانيون عدن:-

- تقديرا منهم لمميزاتها الطبيعية وحصانتها كما ورد في تقرير روبرت جرانت حاكم بومباي.
- تمتاز عدن بصلاحية مناخها وأن مياهها جيدة صاحة للشرب .
- يرى صاحب التقرير أنه أنه اذا ما نظمت ادارتها ستصبح ميناء هاما للتصدير لكل حلصلات بلاد العرب من اللبان والبن والصمغ ونحوه.
- يرى حاكم بومباي لأن انشاء خط مواصلات بحري بخاري يخترق البحر الحمر مرة في الشهر يحتم على البريطانيين تدبير محطة خاصة بهم على ساحل بلاد العرب .
- أن السيطرة على عدن سيمكن البريطانيين من انشاء قاعدة عسكرية لهم تمكنهم من افستفادة وحماية تجارة البحر الأحمر والخليج العربي والساحل المصري امواجه والغني بمنتجاته (في عهد\محمد علي باشا)

- يرى سير روبرت جرانت (حاكم بمباي) أن عد مثل جبل طارق لو أصبحت ملكنا نستطيع أن نقيم فيها التحصينات الدفاعية التي تحصن حدودنا من الدولتان التان تتربصان بمصالحنا في الشرق وهما روسيا من خلال تغلغلها من ايرات والثانية فرنسا القادمةمن جهة مصر.

كانت حكومة الهند تحرص عى السيطرة على عدن بالطرق السلمية :- عن طريق إغراء حاكمها محسن العبدلي بالمال لشراء الميناء،ولما لم تجد المفاوضات نفعا لجأت الى استعمال القوة على ان يكون ذلك في اضيق الحدود.

كانت حكومة الهند تخشى من تدخل قوات محمد على باشا التي كانت على مقربة منهم كردة فعل على التدخل العسكري البريطاني في عدن، كما كانت بريطانيا تحاذر ردات فعل الدول الأوروبية المتربصة بها.،كما أن الحكومة البريطانية كانت تريد ان تتجنب التصادم مع اهالي البلاد الأصليين ولا تريد زرع الأحقاد بينها وبينهم .

سياسة بريطانيا بعد احتلالها عدن :

- أرسل هينز حاكم عدن تقريرا أوضح فيه أن عدد سكان عدد سكان عدن حوالي 600 نسمة منهم حوالي 250 يهودي.
- أن سكان عدن عبارة عن خليط من العرب والهنود والمسلمين وغير المسلمين والصوماليين والفارقة بوجه عام.
- أن العرب كانوا أقل من 300 نسمة.، زأن أعدادهم كانت أكثر قبل الإستعمار،وأن هذا النقص يعود لما يلي :
- أولهما:- أنهم خافوا من الإحتلال البريطاني بعد أن شاهدوا السفن البريطانية الهائلة وهي تحاصر عدن
- ثانيهما:- ان الحصار في حد ذاته اثر على معيشتهم ودفعهم لمغادرةعدن الى لحج وغيرها من القرى المجاورة.
- ثالثهم:- أن العرب عند اجراء احصاءات رسمية كانوا يتحاشون ذكر الاعداد الصحيحة لأبناءهم الذكور خشية من التجنيد، علاوة على عدم ذكرهم للنساء.
- بلغ تعداد سكان عدن سنة 1840 4600 نسمة. ما هي الدلالات ؟؟؟؟
- اتبع البريطانيون سياسة مرنة مع الأهالي العرب حيث :- أعلنوا العفوا عنهم ، حاولوا كسب ثقتهمن والتقرب منهم،وبذل الرعايا الصحية للسكان المحتاجين لها،صرف بعض التعويضات لبعض العرب المتضررين جراء اقتحام القوات البريطانية لعدن،مثال ذلك أن الشيخ رجب العذيبي كان قد أصيب اثناء المعارك فقدم البريطانيون له العناية الطبية اللزمة إلا أنه توفي فقدم البريطانيون لأسرته مبلغ من المال 200 ريال مذكرين اياهم بشجاعة والدهم وبطولته.
- كان رد فعل هذه السياسة أن رجال العذيبي بدءوال يتوددون للبريطانيين وقدموا لهم الجمال لحمل امتعتهم ومؤنهم الى المدينة، وقرر هينز تخصيص راتب شهري لأسرة الشيخ العذيبي ليكون قدوة لغيرهم.
- اجتذبت سياسة التودد هذه السكان العرب، فكانت عشيرة العذيبي اول من ارتبط مع البريطانيين بمعاهدة صداقة سنة 1839م
- شجع هينز السكان العرب للعودة اعمالهم ، وعمل على تنشيط الحركة التجارية في عدن بالتعاون فيما بين التجار العرب وتقديم التسهيلات المعقولة لهم.
- ارسال الى شيوخ القبائل العذيبين العقربي،الحوشبين والسلمي علاوة على محسن العبدلي وابنه احمد موضحا استعداده لتقديم الرعايا الطبية لجرحاهم ،والسماح لهم بحرية التنقل من عدن واليها، وكان هدفه من ذلك اقرار السلام في عدن وتنشيط الحركة التجارية وقد نجح نجاحا كبيرا في سياسته هذه.

- أبدى هؤلاء الشيوخ توددهم للبريطانيين واستعدادهم لإرسال المؤن والجمال اللازمة للقوات البريطانية
- كان هاينز اول حاكم بريطاني لعدن سنة 1839م.
- جمع هينز كل خيوط السلطة في يده بفضل قوة شخصيته وحنكته فكان المسؤليين يرجعون اليه في كل صغيرة
- وكبيرة.
- حرص على الاستفادة من السكان العرب ذوي الخبرة للمشاركة في ادارة المدينة وسمح لهم باتباع اساليبهم الخاصة التي اعتادوها
- استعان ببعض العرب المسلمين العر بلحفظ الأمن والنظامبعد تلقيهم دورات تدريبية في بمباي
- كان قائد الحامية البريطانية الموجودة في عدن مسؤول عن القوات العسكرية ن وواجباته الإستعداد لإخذالحيطة لي هجوم قد يقع على عدن من القبائل المجاورة.
- انشأ هينز شبكة جاسوسية من اليهود وبعض ابناء القبائل التي كانت توصل اليه اخبار تحركات القبائل المناوئة للحكم البريطاني في عدن ، اوتحركات الأفراد الرافضين لهذا الحكم.
- حرص البريطانيون على ان تكون الأوضاع القائمة في عدن وما حولها هادئة حتى تزدهر التجارة، لذلك اتبعت بريطانيا كافة الوسائل الممكنة لتنظيم العلاقات الودية مع شيوخ القبائل القاطنة المحيطة بعدن ، وأهم هذه الوسائل عقد المعاهدات الولائية أو معاهدات الصداقة المصحوبة بدفع المشاهرات المالية لشيوخ القبائل،اطلاق مدافع الترحيب ، منح النياشين والرتب .
- ظلت هذه المعاهدات والمشاهرات سمة العلاقات البريطانية وشيوخ المناطق الجنوبيةوسلاطينهاحتى مطلع العقد الثامن من القرن التاسع عشر.
- عمدت شركة الهند الى ترك المناطق الداخلية وشأنها وعدم التدخل الا على هيئة الحكم المصلح.
- انتهج هينز سياسة فرق تسد في المنطقة حتى يضمن بقاء القبائل المحيطة في حاجة الى دعمه،وحتى لا يشكل الوطنيون جبهة واحدة موحدة ضد البريطانيين.
- كان هاينز يبذل الأموال للقبائل محرضها على افقتتال مع بعضها البعض المر الذي جعل الشركة في نهاية المطاف تتهمه باختلاس الأموال وحكم عليه بالسجن بعد أن حكم عدن حوالي 15 عاما 1839-1854 ليموت بعد خروجه بسنوات قليلة حيث توفي سنة 1860م
- تغيرت السياسة بتغيير المقيمين السياسيين في بعض الأمور الثانويةالمتعلقة في تعامله مع المواطنين ونحوه، على ان الطابع المرن للسياسة كان هو السمة الغالبة.
- عمد هينز الى محاولة اجتذاب شيوخ القبائل اليمنية القاطنة على طول الساحل اليمني ليرسلوا سفنهم الى عدن بدلا من ارسالها الى شقرة التابعة لقبائل الفضلي، كما حاول العثور على مصادر اخرى داخل اليمن لإمداده بالماشية والمواد الغذائية ةالأخشاب حتى يتمكن من توفير كافة الإمكانات التي تجعل مدينة عدن قادرة على الإكتفاء الذاتي بحيث تفي بالحاجات الضرورية للحامية البريطانية.
- عمد هينز الى استعمال القوة في بعض افحيان لفرض أمر واقع على شيوخ القبائل ، كما فعل عندما زحف للسيطرة على لحج للتخلص من السلطان محسن العبدلي عندما قام الأخير باغلاق طريق القوافل المؤدي الى صنعاء بواسطة سيطرته على احد ابراج المراقبة، كما ارسل هينز سفينة حربية الى ميناء شقرة لمنع أي سفينة

من الدخول الى ذلك الميناء او الخروج منه، وقد اعقب هذا الحصار فتح الطرق المؤدية الى عدن.

بسم الله الرحمن الرحيم

عهد الإمام يحي حميد الدين:-

يمكن لنا تقسيم فترة حكمه الى ثلاث أقسام:-

الأولى : 1904- 1911

الثانية : 1911- 1918م

الثالثة :1918م- 1948م

وقد تميزت كل مرحلة من المراحل بمزايا ها الخاصة ، فالفترة الأولى تميزت بأنها:-

1- امتداد لحكم لسياسة أبيه (ثورة عارمة على العثمانيين)
2- اتفاقه مع السيد الإدريسي لتحقيق هدف واحد
3- ارتباط معظم قبائل اليمن به واعتبارهم له رمز المقاومة اليمنية

المرحلة الثانية:- تميزت ب:-

1- عقد معاهدة دعان بينه وبين العثمانيين .
2- هدوء المناطق الشمالية من قتال القبائل للعثمانيين
3- اعتراف العثمانيين به كحاكم شرعي لمناطق الزيديين
4- قيام العداء بينه وبين السيد الإدريسي.
5- التحاق بعضا من القبائل الزيدية بالإدريسي لقتال العثمانيين
6- فقدان الإمام لبعض المناطق التي كانت تابعة له في منطقة تهامة
7- تفرغ الإمام لمحاربة مناوئيه داخل الجبهة الزيدية.
8- موقف الإمام المحايد من الحرب

المرحلة الثالثة :- وتميزت ب:-

1- اندلاع الحرب العالمية الأولى ونهايتها ومن تسويات ما بعد الحرب
2- خروج العثمانيين من اليمن وسيطرة الإمام على صنعاء.
3- دخوله في نزاع عسكري مع الإدريسي ونجاحه في استعادة ببعض من مناطق تهامة
4- موقف بريطانيا المتقلب منه ، وبداية مشاكله معها بخصوص المناطق الجنوبية ومطالبته باليمن الكبرى.
5- قيام المملكة المتوكلية اليمنية
6- استحداثه لمنصب ولي العهد رغم رفض أهل الحل والعقد في المذهب الزيدي لذلك
7- قيام ثورة الدستور سنة 1948 ومقتل الإمام يحي .

أسلوب حكم الإمام لليمن

علاقات اليمن الخارجية : علاقتها بالبريطانيين، الدول العربية ، علاقتها بالدول الأجنبية الحرب السعودية اليمنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

المرحلة الثانية من مراحل حكم الإمام يحيى حميد الدين (1911-1918م)

***- أهم ما يميز هذه المرحلة:**

*- العداء بين الإمام والإدريسي

*- هدنة الإمام مع العثمانيين

*- تفرغ الإمام للتعامل مع معارضيه من الزيديين

*- توسع السيد الإدريسي على حساب سلطة الإمام

*- قيام الحرب العالمية الأولى عام 1914م واختلاف موقف حكام اليمن منها

أولا العداء بين الإدريسي والإمام:-

- بداية لا بد من الحديث ظهور عن الأدارسة على مسرح الأحداث في تهامة.
- كان أول الوافدين من الأدارسة السيد احمد الإدريسي إلى مكة المكرمة سنة 1799م.
- كان السيد احمد صاحب الطريقة الأحمدية الصوفية.
- دعاه طلبته للقدوم إلى صبيا فقدم إليها وأقام فيها.
- ذاع صيت السيد احمد في تهامة واليمن
- توفي السيد احمد في صبيا سنة1837م تاركا مكانة اجتماعية مرموقة، وثروة مادية هائلة إذ أصبح قبره مزارا لأتباعه القادمين من كافة أقاليم الجزيرة العربية.
- اكتسبت الأسرة مكانة دينية مرموقة تبعا لمكانة السيد احمد.
- نجح السيد محمد بن علي الإدريسي حفيد السيد أحمد في توظيف مكانة الأسرة لتحقيق مجد سياسي لشخصه ولأسرته.
- ولد محمد بن علي الإدريسي عام 1876م بصبيا.
- تلقى تعليمه الأولي في صبيا ،ثم انتقل بين القاهرة والسودان والكفرة بليبيا مقر السنوسيين بشمال إفريقيا.
- عاد إلى صبيا وتطلع إلى القيام بإصلاحات دينية واجتماعية.
- ظهر على مسرح الأحداث في صبيا كمصلح اجتماعي سنة 1907م.
- ذاع صيت السيد محمد علي بين قبائل تهامة بيد أن العثمانيين لم يستشعروا أي خطر من ناحيته.
- كان الإمام ينظر إليه بكثير من الحذر غذ اعتره منافسا قويا له في مناطق يرى الإمام أنها تؤول إليه بحكم سيطرة آبائه وأجداده عليها، ونظر إليه شريف مكة على أنه حديث نعمة.
- واقع الحال كان السيد الإدريسي يكتسب شعبية في تهامة، وظلت مكانته تعلوا بين القبائل التهامية ، بل وبعض القبائل الخاضعة للإمام يحيى.
- أعلن السيد الإدريسي ثورته على العثمانيين في عام 1909م مستعينا بالدعم الإيطالي الذي تحصل عليه وفقا لتفاهم حدث بينه وبين الإيطاليين إبان دراسته في القاهرة.
- نجح السيد الإدريسي بذكاء شديد في تأليب القبائل الشافعية على العثمانيين ، وجعلها متحمسة للقتال على جانبه عند تأكيده أن ثورته هي لجعل عسير للعسيريين.
- هاجم أتباع الإدريسي الأتراك في ابها،بل عمت هجماتهم جميع مناطق عسير ،متزامنة مع تصعيد هجمات الإمام في المناطق الشمالية وزحفه على صنعاء.
- نجح العثمانيون بفك الحصار عن أبها بإرسالهم حملة قوية ساهم فيها شريف مكة ، الذي كان الى هذا الحين مواليا للعثمانيين.

- انسحب الإدريسي إلى المناطق الجبلية وظل يعمل بالتجانس مع الإمام يحيى في حرب العثمانيين حتى وقع الإمام اتفاقية دعان سنة 1911م.
- حاصر الإمام صنعاء قرابة أربعة أشهر بجند تراوح عددهم بين 10000-50000متطوع.وقد أصاب الهلع الحامية العثمانية في صنعاء ،فكان كثير من جندها من العرب يهربون لخارج السور للانضمام إلى جند الإمام.
- طال الحصار عدد من المدن اليمنية كمدينة يريم التي حاصرتها جماعات من ذو محمد وذو حسين.
- قابل العثمانيون هذه الثورات بإرسال المدد العسكري تلو الآخر، وإرسال الوفود تباعا دون جدوى تذكر.
- تفيد بعض التقارير العثمانية أن الدولة كان قد استقر رأيها على الرضوخ لطلبات الإمام يحيى فيما يخص المناطق الشمالية من اليمن ،والتركيز على تثبيت سيطرتهم على تهامة لذا أرسل جيش عزت باشا لتحقيق هذا الغرض،وقد أعطي عزت باشا الصلاحيات الكافية لإجراء المباحثات مع الإمام يحيى بهذا الشأن.
- حرص العثمانيون على إظهار هيبة الدولة بإرسالها هذا الجيش في الوقت ذاته ،أرادت ألا ينخرط الجيش في حروب لن تعود على الدولة إلا بخسائر فادحة في الأرواح والمعدات.
- لذلك سير العثمانيون جيشا قويا بقيادة عزت باشا وهو أحد أكفأ القادة العسكريين العثمانيين.
- نجح عزت باشا في فك الحصار عن صنعاء بيد أن حملة الوالي العثماني محمد علي باشا فشلت فشلا ذريعا في تتبع جند الإمام بل عانى هذا الجيش من هزيمة ساحقة فعاد إلى صنعاء خائبا.
- عندها أدرك عزت باشا أنه لابد له من الوصول إلى صيغة اتفاق ترضي الطرفين المتصارعين الإمام يحيى- والعثمانيين ،فكان أن عقدت اتفاقية دعان.
- على الرغم من بعض ايجابيات هذه الاتفاقية على الإمام يحيى ، إلا أنها أفقدته الكثير من دعم القبائل التي كانت موالية له ،فأصبحت هذه القبائل بالوضع الجديد موالية للإدريسي الذي سيقودها إلى الغنائم جراء حروبها مع العثمانيين.
- بدأ بعض قضاة الإمام يبايعون الإدريسي الذي كانت سلطته عامة في عسير وقسم كبير من المناطق الشمالية إثر بعض المناوشات التي انتصر فيها إتباع الإدريسي على جند الإمام يحيى.
- ولعل من أهم من بايع السيد الإدريسي قبيلة حاشد التي أرسلت الرهائن إليه في صبيا كناية عن دخولها تحت طاعته ، وكانت هذه القبيلة من أهم الدعامات للإمام يحيى.
- نجح السيد الإدريسي في التغلغل داخل قلوب العسيريين خاصة واليمنيين عامة لصلاحه وتقواه ،وما قام به من إصلاحات في عسير ،وجهود في نشر الأمن والعدل بين القبائل في عسير.

بسم الله الرحمن الرحيم

المرحلة الثالثة من مراحل حكم الإمام يحيى (1911-1918)

- لعل أهم ما يميز هذه المرحلة زوال الحكم العثماني عن اليمن وجلاء قواته عنها ، وبالتالي انتقال مقاليد السلطة للإمام يحيى
- عمد الإمام إلى إعلان تأسيس المملكة المتوكلية اليمنية في 18 ربيع الأول 1337هـ/22ديسمبر 1918م.
- أصبح الإمام يحيى الحاكم الفعلي لليمن دون منازع.
- تركزت سياسة الدولة في هذه المرحلة على ثلاث جوانب رئيسة:

1. تثبيت الأوضاع الداخلية بالقضاء على مظاهر الفوضى السياسية التي عمت البلاد جراء المتمردات القبلية والفلاحية.
2. التصدي للتغلغل البريطاني في كلا من محميات عدن (النواحي التسع) من جهة ،وتهامة (الحديدة)من جهة أخرى.
3. تبني سياسة العزلة باعتبارها حجر الأساس في السياسة الخارجية الهادفة إلى حفظ استقلال اليمن وسيادته الوطنية.

- ورث الإمام عن العثمانيين بعض النظم الإدارية ومالية وعسكرية ، بيد أنها لا تخرج عن تلك التي كانت سائدة في عهد مؤسسي الدولة القاسمية في عهد محمد بن القاسم ، وأخيه إسماعيل.
- طرأ تغيير هام وجوهري في المسمى بما يحمله هذا المسمى من دلالات. حيث نجح الإمام بتحويل مسمى الدولة إلى تحويلها مملكة يتوارث الحكم فيها أبناء الإمام من بعده.
- بهذا الإجراء يكون الإمام يحيى قد المذهب الزيدي من أحد أهم مبادئه الأساسية القاضي بعدم وراثة الحكم في الأسرة الواحدة
- تحالف الإمام مع قبيلتي حاشد وبكيل فأصبحتا جناحي إمامته.
- حرص يحيى على تقريب العناصر الموالية له من السادة والقضاة، وكانت هناك قوى من حاشد وهم العصيمات من اشد المعارضين له بل إن بعضهم انضم للإدريسي باعتباره إمام الذهب .
- لقد عمل مع الإمام يحيى عددا من الإداريين العثمانيين الذين رغبوا البقاء في اليمن بعد زوال الحكم العثماني كالقاضي راغب الذي بذل جهودا جرارة في مجال إنجاح علاقات الإمام الخارجية. وقد عين ابنه الأمير سيف الإسلام عبدالله أمر الخارجية،وعلى الرغم من ذلك ظل القاضي راغب هو المعول عليه في السياسة الخارجية.
- اتصف الإمام يحيى ببخله الشديد ، وندرة إنفاقه على مرافق الدولة المختلفة حتى قال فيه صهره العلامة عبدالرحمن الشامي " ما قتل الإمام يحيى إلا بخله".
- كان الإمام يحيى يتولى أمر كل صغيرة وكبيرة في البلاد وخاصة في الجوانب المالية، لذلك شهدت المشاريع العمرانية والتطويرية للدولة جمودا قاتلا .
- نتيجة للانتهاكات الغربية للدول العربية والإسلامية في عهد انتهج الإمام سياسة العزلة الخانقة على اليمن حرصا منه على استقلالها وخشية من مكايد الكفار الملاعين.
- مما رواه الزبيري عن رؤيا الإمام يحيى لما حوله من الدول العربية:-
- وما الأرض إلا لنا وحدنا ولكنهم زاحمونا بها
- وما مصر إلا بلاد الفجور تسيل الخمور بأبوابها

- وبغداد عاصمة الملحدين وما نشأ الكفر إلا بها
- وقد اتلف الخلق ارض الحجاز ومكة نهب لأعرابها.
- ارتكزت سياسة الإمام يحيى بعد الاستقلال على ثلاثة محاور رئيسة أولا محاربة الأدارسة في تهامة وتوسيع حدود مملكته على حسابهم علاوة على مواجهة تمرد القبائل ،والقضاء على مظاهر الفوضى السياسية.
- ثانيا:- التصدي للوجود البريطاني في النواحي التسعة أو ما يعرف بمحميات بريطانيا.
- ثالثا: تبني سياسة العزلة في العلاقات الخارجية .
- عمد الإمام إلى ترسيخ حكمه المركزي عن طريق تنظيم علاقاته بمشائخ القبائل الذين يتم اختيارهم للمشيخة بعد قسمهم يمين الولاء سواء أكانوا في المناطق الزيدية أم الشافعية.
- على صعيد حروبه مع الأدارسة استغل الإمام الخلافات التي نشبت في أسرة الأدارسة بعد وفاة السيد محمد بن علي الإدريسي.عام 1923م/ 1342هـ.
- احتل الحديدة عام 1926م وأكمل سيطرته على عدد من المدن التهامية الهامة مثل اللحية ،ميدي والصليف،ووصل إلى معاقل الأدارسة في عسير.
- دفع هذا الأمر الأدارسة للدخول في حماية الملك عبد العزيز ، وهذا بدوره قاد للصراع السعودي اليمني.
- واجه الإمام يحيى هزائم متكررة على يد السعوديين ، وتجلى ذلك عن عقد اتفاقية الطائف عام 1934م/1353هـ التي أنهت حالة الحرب بين البلدين،وأقرت الأوضاع لحدودية لكلتا الدولتين.
- في مجال علاقاته مع البريطانيين في الجنوب كانت المباحثات متواصلة بين الطرفين للوصول إلى صيغة يقبل بها الطرفان بما يتعلق بالمحميات التسع،حيث كان الإمام يرى أنها جزء لا يتجزأ من دولته، بينما كان البريطانيون يرون ضرورة الالتزام باتفاقية الحدود التي وقعها البريطانيون مع الدولة العثمانية عام 1913، وتقضي بتحديد الحدود بين الدولتين.
- واحتدمت العلاقات بين الطرفين حينما سير الإمام قواته عام 1919-1921/1338-1339هـ مدفوعا بنشوة النصر على الأدارسة ،واتفاقه مع الإيطاليين باتجاه الجنوب ، فسيطر على عدد من المناطق إلى أن اقتربت قواته من لحج، وكان هاجس الإمام السيطرة على منطقة الضالع والاحتفاظ بها.وتم له ذلك.
- تعددت المناوشات بين القوات المتوكلية ،والقوات المحلية المدفوعة من قبل البريطانيين.
- من ناحية أخرى سيطرة بريطانيا على الحديدة إبان الحرب العظمى لإجبار العثمانيين على الجلاء عن اليمن،ولتكون ورقة ضاغطة على الإمام في مستقبل الأيام.
- قام الطيران البريطاني عام 1347/1928بشن غارات جويه متعددة على مدن الجنوب لضرب قوات الإمام،كما سيرت قواتها البرية للضالع تساعدها قوات الأمراء المحليين.
- أمام هذا الضغط انسحب الإمام من الجنوب
- ظل الإمام رافضا الاعتراف باتفاقية 1913م.
- وقع الإمام اتفاقية صداقة مع البريطانيين عام 1934م فعُل الجانب التجاري منهاںأما ما يتعلق بالحدود فأقرت الاتفاقية الإبقاء على الوضع على ما هو عليه لمدة 40 سنة الى حين إجراء مفاوضات أخرى. ومن الجدير بالملاحظة أن مسألة الحدود لم يبت فيها في عهد الإمام يحيى وابنه أحمد.
- نتيجة لهزائم الإمام في حروبه مع السعوديين ، ونتيجة للتخلف الذي كانت عليه البلاد ،تعالت أصوات اليمنيين مطالبة بإصلاحات تعم سائر مناحي الدولة.

مواقف الوالي محمود نديم بك السياسية باليمن خلال الفترة 1911-1925م

د. هاني بن زامل مهنا
كلية الآداب - قسم التاريخ
جامعة الملك عبد العزيز بجدة

المستخلص:

يعتبر الوالي العثماني محمود نديم بك من أهم الولاة العثمانيين الذين لعبوا دورا حاسما في تأريخ اليمن الحديث فهو آخر الولاة العثمانيون في اليمن ،وهو شهدت فترته زوال الحكم العثماني عن اليمن ،بل زوالها كدولة تشتمل سيطرتها على المنطقة العربية بما فيها اليمن. وتهدف هذه الدراسة إلى تتبع الدور الكبير الذي قام به الوالي العثماني محمود نديم بك ،في الحفاظ على ممتلكات العثمانيين في اليمن إبان الحرب العالية الأولى ، وتتبع الدور الذي لعبه لتحويل ممتلكات العثمانيين في اليمن للإمام يحيى حميد الدين ،ومعرفة السبل والوسائل التي اتبعها هذا الوالي لتحقيق هذا الهدف. كما عني البحث بدراسة أبعاد شخصية محمود نديم بك ، وتوضيح ما آلت إليه أوضاع اليمن ، وأوضاعه الشخصية بعد نهاية الحرب العامية الأولى.

تمهيد

السلطان عبد الحميد الثاني وتوجهاته السياسية:-

شهدت الدولة العثمانية قبل سقوطها تدهورا في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية لأسباب متعددة ، ليست هذه الدراسة معنية بمناقشتها ، وجاء عهد السلطان عبد الحميد وسياساته التي انتهجها (1293-1327هـ / 1876- 1909م) كاستجابة منطقية لسير الأحداث في هذه الدولة . فمع اعتلاء السلطان عبد الحميد العرش سنة 1876م / 1293هـ خلفا للسلطان مراد الخامس ، بدأ الدستوريون في المطالبة بإدخال عدد من الإصلاحات الدستورية علّها تساهم في إصلاح وتدارك أمر الدولة ، وكان السلطان عبد الحميد قد وعد بتبني مثل هذه الإصلاحات قبل اعتلائه العرش ، علما بأنه كان يرى أن الحل الأنجع لسلامة الدولة كامن في إنشاء سلطة قوية تتركز قبضتها في يديه لتتمكن من تحقيق ما يلي :

1- مواجهة التدخل الأوروبي والوقوف بقوة أمام تدخل الدول الأوربية في شؤون الدولة

2- مواجهة النزعات الاستقلالية

3- النعرات القومية والتصدي لها .

و من أجل ذلك فقد كان السلطان يرى أن في الحياة الدستورية إضعاف لسلطته ، وأن الركون إلى الدستور قد جَرَّ البلاد إلى حافة الهاوية ، وأن الشعب العثماني ليس مهيأ بعد للحياة البرلمانية(1) .

ولتنفيذ توجهاته تلك ، عمد السلطان عبد الحميد إلى تقريب وتعيين من عرفوا بمواقفهم السلبية من الإصلاحيين ومن الدستور ، ويبدوا أن السلطان عبد الحميد اضطر ليناور ويظهر عطفه المؤقت على الإصلاحيين تحت ضغط تدخل الدول الغربية في شؤون الدولة - إثر حرب الدولة مع الصرب - عندما أصدر فرمانا بتعيين من كان يطلق عليه أبو الأحرار مدحت باشا صدرا أعظما .(2)

وعلى الرغم من نجاح مدحت باشا في إنهاء حالة الحرب ، وإعلانه للدستور الذي طالما انتظره الشعب سنة 1295هـ / 1877م ، وإلقاء السلطان عبد الحميد خطبته في مجلس المبعوثان التي أوضح فيها أوجه الخلل والأماني المعقودة لحل إشكالات الدولة . على الرغم من ذلك إلا أنه لم يمض وقت طويل حتى نقض السلطان عبد الحميد كل الأماني التي عقدها الدستوريون عليه ، فجمد الحياة البرلمانية في الدولة ، لمدة تقارب الثلاثين عاما ، وأخذ يحكم البلاد حكما فرديا مطلقا .

ويمكن لدارس عهد السلطان عبد الحميد أن يلحظ مدى الشك والريبة اللتان غلفتا شخصية السلطان فانعكس ذلك على ما كان يتخذه من سياسات على الصعيدين الداخلي والخارجي . حيث أن شعوره المطلق بالخوف من الدسائس قد جعله حبيس قصر يلدز في السنوات الأخيرة من حكمه ، محاطا بسياج من الجاسوسية ، خاصة بعد تعرضه للعديد من المحاولات الفاشلة لاغتياله من قبل المعارضين لسياساته من جماعة الأرمن ، و جماعة تركيا الفتاة .

وقد تجلت تلك الريبة الكامنة في ذهن السلطان عبد الحميد في العديد من الأعمال الإدارية ومن خلال إمعانه المتكرر في تغيير الصدر الأعظم لدولته لأكثر من ستة عشر مرة خلال الست سنوات الأولى من حكمه ، ناهيك عن كثرة تعاقب الحكومات في عهده ، التي بلغ تعدادها ست وعشرين مرة خلال فترة حكمة الممتدة لثلاث وثلاثين سنة . وليس ذلك وحسب بل لقد تعدى شك السلطان عبد الحميد السياسيين أنفسهم ليرتاب في كل سياسات التنظيمات وتطبيقاتها الجديدة ، فكان أن وقف منها موقف المعارض الشاك في حقيقة توجه أصحابها ، وارتباطاتهم الدولية ، ولعل هذا ما يفسر لنا بوضوح حدة الخلاف بين الإصلاحيين ومن يشايعهم مع السلطان عبد الحميد .

لقد عمد السلطان عبد الحميد إلى مراقبة العاملين في الدولة من موظفين صغارا كانوا أم كبارا عن طريق شبكة تجسس موازية لوزارة الشرطة ، التي كان يضع على رأسها أهل ثقته ، ليديرها من

قصر يلدز ، الأمر الذي حول الدولة في عهده إلى دولة بوليسية بما تعنيه الكلمة من معنى ، وملأ السجون بمساجين كتبت فيهم التقارير وشاية كانت أم حقيقة .

كذلك تعزز في عهد السلطان عبد الحميد أمر الرقابة على المطبوعات ، فأنشأت لجان للرقابة بوزارة التعليم ووزارة الشئون الخارجية لمراقبة المطبوعات ، ويرى بعض المؤرخين أن الرقابة كانت صارمة بحيث كان من المحذور استعمال بعض الألفاظ كالدستور ، الحرية ، الثورة ، الفوضى ، الإضراب .(3).

وعلى صعيد السياسة الخارجية للدولة ، شاب الشك والريبة - ولعل لبعضها ما يبررها - نظرة السلطان عبد الحميد حيال موقف بريطانيا من سياستها التقليدية القائمة على الحفاظ على سلامة وحدة الأراضي العثمانية . ولا يخفى أن المصادر الغربية التي تناولت عهد عبد الحميد قد ساهمت في إضفاء صورة مبالغ فيها عن استبداد السلطان عبد الحميد باعتباره "قاتل الحريات ، وذابح الأرمن" بحسب وصفهم ، حتى أنه قد نعت في أدبيات المعارضة السياسية ولدى الغربيين بالسلطان الأحمر . وعمدت هذه المصادر إلى حجب كثير من الإنجازات التي تمت في عهده ، ربما لتوجهاته السياسية الإسلامية ، وربما لموقفه الحازم الرافض لفكرة استقلال القوميات ، والأقليات المسيحية . (4)

وإزاء ذلك ، فقد وجد السلطان عبد الحميد في التوجه نحو دعم فكرة تعزيز لبنات الوحدة الإسلامية وتبني أفكار جمال الدين الأفغاني ، الداعية إلى **تعزيز فكرة وحدة المسلمين تحت لواء** الخلافة الإسلامية ، خير ضمان لبقاء وحدة الدولة ، حيث يمثل الإسلام الدين الغالب لسكان الدولة . وبالتالي مرتكز عمود نظام الخلافة الإسلامية ، التي تشكل عامل مقاومة فعال لبروز مفهوم الدولة القومية المستقلة ، التي بدأت تنتشر ملامحها بين السكان المسلمين في الدولة وبخاصة العرب منهم ، الذين ارتفعت أصوات بعض مثقفيهم ، نتيجة للاستبداد الحميدي ، بالمناداة بأحقية العرب في حكم أنفسهم وتكوين دولة قومية لهم ، ناهيك عن بروز عدد من الآراء الفكرية المطالبة بعودة الخلافة إلى أصحابها الشرعيين وهم القرشيين من العرب بحسب ما تنص عليه كتب السياسة الشرعية الإسلامية ، ووضح هذا الطرح في مختلف أطروحات الشيخ عبد الرحمن الكواكبي بوجه خاص .(5). لهذا فقد سعى السلطان عبد الحميد وبهدف تضييق الخناق على المد القومي بين العرب إلى جعل الولايات العربية تتمتع بالأولوية على المستويين الاقتصادي والسياسي : فكانت الولايات العربية هي الولايات التي يرسل إليها الأقدر والأكفأ من الولاة العثمانيين ، وتخصص لها الكثير من الاستثمارات ، والأرصدة العامة ، ومثال ذلك تجهيز دمشق بالإضاءة والترام الكهربائي سنة 1906 قبل استانبول ذاتها ، علاوة على تدعيم شبكات الاتصال فيها وربطها بالأستانة ، عبر سكة الحديد التي تربط بين سوريا والحجاز.(6)

أولا:- محمود نديم بك قبل توليه ولاة اليمن :

ينتمي محمود نديم بك الذي ولد بدمشق في 13مارس للعام 1865م/1281هـ ، إلى عائلة جيدة الدخل يعود أصلها إلى مدينة كركوك شمال العراق ، وقد كان والده السيد خضر أفندي احد مسئولي الإدارة العثمانية بالشام ، واختلفت الآراء حول تحديد هويته العرقية فيما إذا كان عربيا أو خلاف ذلك ، حيث يذكر المؤرخ التركي علي بيرنسي (Ali Birinci)(7) في سيرته حول محمود نديم أن عائلته تنحدر من أصل تركماني يرجع إلى مدينة كركوك لذا عرفت بالكركوكي ، بينما يسلم عيسى صالحية بأن محمود نديم عربـي سوري ، وهو ما يتفق معه فيه اريك ماكرو الذي يشير في كتابه : اليمن والعرب إلى "انه سوري اسمر اللون عريض الفك بدينا ينتعل الأحذية العسكرية ذات المهماز ، ويختتم بخواتم ذهبية ضخمة .... وفي سنواته الأخيرة اخذ يلبس الكوفية أحيانا بدل الطربوش .... ليؤكد انتمائه العربي" (8)

ومن المعروف أن نشأة محمود نديم كانت بدمشق حيث كان والده يعمل هناك ، ثم انتقل إلى طرابلس الغرب حيث تلقى تعليمه الأولي فيها فتخرج من إحدى المدارس العثمانية في 30 يونيو للعام 1877م/1293هـ ، بعد ذلك عمل كمتدرب في أحد مكاتب التحريرات العثمانية بطرابلس الغرب وهو ابن الثانية عشر . ولنا وقفة قصيرة حول توليه العمل في هذه السن المبكرة ،هل يعود ذلك لمكانة والده الوظيفية في الإدارة العثمانية ،أم أن ذلك يتناسب مع روح العصر الذي كان يعيش فيه محمود نديم بك.(9)

تولى محمود نديم بك أولى مناصبه الرسمية بالجزيرة العربية في مدينة جدة ، حيث عمل كاتب أول في محكمتها التجارية في 3 مارس سنة 1881م/1297هـ ، ثم عين بوظيفة كاتب أول في محكمة تعز المستعجلة باليمن في الفترة مابين 1883-1886م ، قبل أن ينتقل للعمل كرئيس للمحكمة التجارية بالحديدة ، انتقل بعدها إلى استانبول بهدف الاستشفاء والعلاج لمدة عام كامل ، عمل أثناءها كرئيس للمحكمة التجارية بالأستانة . ثم كان انتقاله مرة أخرى إلى ليبيا ليعمل مساعدا للمدعي العام ببنغازي في 14ديسمبر 1887م ، وظل بهذه الوظيفة إلى 13 ابريل سنة 1888م ، حيث عاد إلى وظيفته السابقة بالحديدة ، ليستمر في هذه الوظيفة إلى 27 يناير 1889م ، ثم لينتقل بعدها للعمل بجدة كرئيس للمحكمة التجارية بالحجاز ، واستمر بها قرابة ثلاث سنوات ، كما تولى منصب قائم مقام جدة مرتين فيما بين16 يوليو-21اكتوبر1892-1893 . كما عمل كرئيس لمحكمة التمييز بجدة ، ورئيس للهيئة الحميدية اليمنية في فترات متقاربة تاريخيا(10) .

ونتوقف قليلا عند تنقل محمود نديم بك بين هذه الوظائف المتعددة في سن صغيرة نسبيا- كما ذكرنا سابقا- ،وما قد يحمله من دلالات . فقد تولى أولى مناصبه الرسمية في مدينة جدة ككاتب أول في المحكمة التجارية وهو ابن السادسة عشر سنة ، وتقلب في مناصب عدة بين جدة وتعز والحديدة حتى

وصل إلى منصب رئيسا لمحكمة التمييز وهو دون الثلاثين من العمر ، فهل يمكن أن يعتبر هذا معيارا لعدم وجود من يستطيع أن يتولى هذا المنصب فيها من أبناء هذه المناطق ،أم أن الشاب محمود نديم بك كان يتمتع بمزايا تؤهله لتولي هذه المناصب في هذه السن المبكرة ، أو أن الأمر موكول برمته لحسن اتصالات والده بالإدارة العثمانية في العاصمة ومكانته فيها وقدرته على إيجاد وظائف مرموقة لابنه الشاب حديث التجربة .

ونتساءل هنا عما إذا كان تنقل محمود نديم بك بين محاكم جدة ، وتعز ، والحديدة التجارية يعود إلى تشابه أوجه الحياة بين المدن الثلاث ، وأن هناك رابط ما يربط بينهما من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ؟.

إن تنقل محمود نديم بك بين عدد من الوظائف في فترات زمنية متقاربة وفي مناطق جغرافية متباعدة يدفعنا إلى التساؤل عن مبررات ذلك ، فمن العمل بطرابلس الغرب انتقل إلى جدة ، ثم الحديدة فتعز عودا إلى جدة ثم إلى سالونيك(11) فالحديدة ، ويفرض علينا هذا التنقل في التمعن في دلالاته الوظيفية لاسيما إذا ما أدركنا بأن معظم المناطق التي تنقل إليها محمود نديم بك هي مناطق عربية ، إذا ما استثنينا سالونيك التي مكث فيها فترة وجيزة ، والأستانة التي توجه إليها تبعا لحاجته للاستشفاء؟

جدير بالذكر أن أول وظيفة مدنية لمحمود نديم بك خارج السلك القضائي كانت في حكومة مقاطعة Belen-Hatay(12) في الفترة ما بين 16سبتمبر1894 حتى 9 يناير 1895م ، كما تنقل بين عدد من المناصب في عدد من الولايات العثمانية كسالونيك قبل عودته لليمن مرة أخرى للعمل في زبيد في 29 مايو 1895م . كما جاء ذكر محمود نديم بك كأحد نواب الحديدة في مجلس المبعوثان ، وبأنه معاون الحاكم السابق للحديدة . وكان أحد أفراد الوفد العثماني في اتفاقية دعان التي أنهت حالة الحرب بين الإمام يحيى والعثمانيين في اليمن سنة 1329هـ / 1911م. بل لقد " كان يد عزت باشا اليمنى في المفاوضات مع الإمام . وقد تركه عزت باشا خلفا مدنيا له في اليمن عندما عاد إلى استانبول ليعرض الصلح على الباب العالي ويحصل على الموافقة عليه" (13) وتشير بعض المصادر التي بين أيدينا إلى أن الإمام يحيى قد اشترط تولي محمد نديم بك منصب الولاية في اليمن بعد رحيل عزت باشا . (14)

إن أكثر ما يثير الريبة في تنقلات محمود نديم بك الوظيفية راجع إلى تكرارها بين عديد من المدن العربية ، على أن ذلك يمكن تبريره بإجادته **التحدث** باللغتين العربية والتركية . غير أن التساؤل يبقى مطروحا ، لاسيما إذا أدركنا طبيعة الفترة الزمنية التي كان يعيش فيها محمود نديم بك المنتمية إلى عهد السلطان عبد الحميد ، الذي اعتمد حكمه على الجاسوسية ، وأولى الجزيرة العربية وعلى وجه التحديد الحجاز واليمن عناية خاصة بحكم توجهاته الإسلامية ، فكان لابد له من معرفة

دقائق أمور هاتين الولايتين ، مما يرجح أن تنقلات محمد نديم بك بين جدة واليمن كان لخدمة أغراض معلوماتية . (ومما يرجح هذا الافتراض لدينا عمله لفترة بسيطة في مقاطعة سالونيك ، بمعنى آخر أن تواجده في سالونيك كان بتكليف من السلطان عبد الحميد للاستخبار عن نشاطات جماعة الإتحاد والترقي. ومن المعروف أن سالونيك كانت الموطن الذي تشكلت فيه جمعية الإتحاد والترقي ، التي كان أعضاؤها خليطا من الجنسيات العثمانية ومن بينهم العرب .(15)

ثانيا :- مراحل حياة الوالي العثماني محمود نديم بك في اليمن :

عاصر محمود نديم بك ثلاثة من الأئمة اليمنيين الذين خاضوا حربهم الضروس ضد الدولة العثمانية وهم : الإمام الهادي شرف الدين ، والمنصور محمد بن يحيى ، وأخيرا المتوكل يحيى بن محمد حميد الدين .

وعليه فيمكن تقسيم مراحل حياة محمود نديم بك السياسية في اليمن إلى عدة مراحل وهي :

المرحلة الأولى وهي مرحلة ما قبل توليه الولاية من سنة 1883 - 1911م / 1299-1329هـ) ، حيث قدم محمود نديم بك إلى اليمن في عهد الإمام الهادي شرف الدين المتوفى عام 1890م/1307هـ ، وتولى وظيفة كاتب أول بالمحكمة التجارية بتعز (16) ، كما عايش بعد ذلك مختلف الأوضاع السياسية خلال عهد الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين 1890-1904م/1307-1329هـ (17) ، وعهد نجله الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين ، الذي سار على نهج سابقيه في قتاله للعثمانيين . وتدرج محمود نديم بك في إدارة العثمانيين باليمن حتى وصل إلى منصب نائب الوالي في الفترة التي سبقت صلح دعان في عهد الإمام يحيى. **والمرحلة الثانية** هي التي تولى فيها محمود نديم بك ولاية اليمن وتمتد من 1911-1918م ،**أما المرحلة الثالثة** فهي الممتدة من 1918-1925م ،وهي الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى ،وسنتحدث بالتفصيل عن هذه المراحل لا حقا. **ونرى أنه من المستحسن قبل هذا أن نتحدث بإيجاز عن عهد الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد نظرا لأهمية الحديث عن عهد المتوكل بالنسبة لموضوع بحثنا هذا .**

عهد الإمام التوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين :

يمكن تقسيم فترة حكم الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد إلى ثلاث فترات :

الفترة الأولى تمتد من سنة 1904م/1322هـ حتى سنة 1911م/1329هـ . وتعتبر هذه الفترة امتدادا لحكم والده المنصور الذي تميز بالثورة المتواصلة على العثمانيين .وكان والي اليمن في هذه الفترة هو احمد فيضي باشا، الذي دفعت سياسته المبنية على الجبروت والقوة إلى قيام الثورات المتواصلة على العثمانيين. وقد عايش محمود نديم بك الوالي احمد فيضي باشا في بعض فترات ولايته في اليمن، ويبدوا أن محمود نديم بك كان على خلاف شديد مع توجهات هذا الوالي ، وأسلوب

إدارته للبلاد ، حتى أن الوالي احمد فيضي باشا اتهمه لدى الحكومة العثمانية بالاتصال بالإمام يحيى - بعد تولي الإمام يحيى الإمامة - ومعاونته ومناصرته ، الأمر الذي تسبب في استدعاء محمود نديم بك للأستانة وحبسه ثلاثة أشهر ، ثم أطلق سراحه بعد تولي جماعة الإتحاد والترقي الحكم . (18) .

الفترة الثانية وتمتد من 1911م/1329هـ إلى 1914م/ 1333هـ وفيها ساد السلام في اليمن تبعا للصلح بين الإمام يحيى والعثمانيين إثر توقيع اتفاقية دعان .

الفترة الثالثة وهي التي تمتد من 1918م/1336هـ إلى 1948م / 1367هـ . ولن ندخل في تفاصيل فترات حكم الإمام يحيى إلا بما يتناسب وموضوع بحثنا رغبة في التركيز على دور الوالي محمود نديم بك في اليمن وخشية الإطالة .

ظروف ارتقاء محمود نديم بك لولاية اليمن:-

مما سبق يتضح لنا أن محمود نديم بك قد عايش أوضاع اليمن إبان فترة الاضطراب ، ولم يأتي إلى ولاية اليمن إلا وهو خبير بمشاكلها ، بصير بأنجع السبل لحل هذه الإشكالات . ولعل ما ذكره محمود نديم بك عام 1328هـ/1910م لأحد وجهاء اليمن في الأستانة ، وكان حينها مندوبا عن اليمن في مجلس المبعوثان ، من انه سيبذل كل مجهود يحقق حقن دماء اليمنيين ، ويسكن الفتن في بلادهم . يؤكد خبرته في أمور اليمن(19) كما يتضح لنا أن محمود نديم بك قد رأى التمرد اليمني الشديد على الحكم العثماني إبان عهد المنصور والمتوكل ، واتضح أمام عينيه فشل أسلوب العنف والشدة الذي انتهجه الولاة العثمانيون- وخاصة الوالي احمد فيضي باشا ، لحل إشكال اليمن ، فمن الطبيعي إذا أن ينتهج أسلوبا آخر في إدارة ولايته حينما يتولى أمرها ينسجم مع خبراته وتوجهاته السياسية.

لقد جاء تنصيب محمود نديم بك لولاية اليمن عام 1329هـ/1911م مختلف في شكله ومضمونه عن من سبقه من الولاة العثمانيين في النقاط التالية:

- قد عمل باليمن لفترات طويلة قبل توليه أمر الولاية ، مما جعله عالما خبيرا بأحوال اليمن السياسية ، يساعده في ذلك تمكنه من اللغة العربية ، علاوة على التركية ، ولاشك فقد كان لذلك أثره على نفوس اليمنيين مما أدى إلى تعميق صلاته بالقيادات اليمنية كما مكنته من التغلغل داخل البنية الاجتماعية اليمنية للتعرف على أدق تفاصيل حياتها . جدير بالذكر فقد كان محمود نديم بك مندوبا عن الحديدة في مجلس المبعوثان ، ومما عرف عنه أنه كان قد قدم مذكرة في مجلس المبعوثان في "20 جمادي الثانية سنة 1328هـ / طالبا فيها إلغاء ضريبة الاحتساب ، لوقاية أهل اليمن من الظلم الحاصل من وجود هذه الضريبة" ، وكانت الموافقة على ذلك ، مما زاد من شعبيته لدى النخبة السياسية باليمن بعد ذلك (20)

- إذا أخذنا عامل النسب بافتراض أنه عربي الأصل (عاشت أسرته بمدينة كركوك) فإن ذلك سيجعله أكثر قبولا عند القبائل العربية من غيره من الولاة العثمانيين ، وبفرض أنه تركمانيا فإن مذهبه الشيعي (غالبية التركمان يتمذهبون بالمذهب الشيعي الإثنا عشري) سيجعله أكثر قبولا عند الأئمة الزيديين .
- إن محمود نديم بك تدرج إلى منصب الوالي من وظائف كانت في معظمها من السلك الإداري المدني ، بمعنى آخر ، أنه لم يكن عسكريا كما كان الحال في عهد احمد فيضي باشا وعبد الله باشا وغيرهما من ولاة العثمانيين باليمن ، ولابد لهذه الخبرات الإدارية المدنية أن تقوده إلى العمل لحل الإشكالات اليمنية بالطرق السلمية ، وهذا ما انتهجه في اليمن في الفترة الأولى من مراحل ولايته كما سنرى لا حقا .
- أنه جاء إلى الولاية في أعقاب صلح دعان (21) الذي أنهى حالة الحرب بين العثمانيين ودولة الأئمة الزيدية على عهد الإمام يحيى ، وأن هذه المرحلة تتطلب واليا يميل إلى السلم أكثر من ميله إلى الحرب ، وأن يحظى برضا الأطراف اليمنية والعثمانية على حد سواء ، وهذا ما يتوفر في شخص محمود نديم بك ، بل أن بعض المصادر اليمنية أشارت أن من بين توصيات اتفاقية دعان غير المعلنة طلب الإمام يحيى بن محمد حميد الدين تنصيب محمود نديم بك واليا لليمن.(22)

ثالثا : مراحل حكم الوالي محمود نديم بك باليمن: 1329هـ-1324هـ /1911-1923م

يمكننا أن نقسم مراحل حكم محمود نديم بك في اليمن إلى ثلاثة أقسام متقاربة في عدد سنواتها ، مختلفة اختلافا كبيرا في نتائجها السياسية . ولعل مرد هذا الاختلاف راجع إلى طبيعة الأوضاع السياسية التي كانت تحياها اليمن والجزيرة العربية والعالم اجمع جراء المتغيرات السياسية التي سبقت وأعقبت الحرب العالمية الأولـــى (1333هـ/1914م.)

المرحلة الأولى :1329-1333هـ / 1911-1914م :

تميزت هذه المرحلة بسعي محمود نديم بك إلى تهدئة الأوضاع في اليمن ، وحل إشكالاته بطرق سلمية ، وذلك تمشيا مع الجو السياسي العام الذي ساد اليمن بعد صلح دعان . ولعل أهم ما يميز هذه المرحلة ، التقارب الواضح بين الوالي العثماني محمود نديم بك والإمام يحيى حميد الدين . ويتضح هذا التقارب جليا عندما وفد إلى الإمام يحيى بعضا من وفود قبائل تهامة تحضه على قتال السيد محمد بن علي الإدريسي لتحالفه مع الإيطاليين ، فأمرهم الإمام بالتوجه إلى الوالي محمود نديم بك في صنعاء . بمعنى آخر فإن الإمام يحيى قد أحال أمر مناصرة هذه القبائل ضد الإدريسي للوالي العثماني محمود نديم بك ، ولعل السبب الرئيس في ذلك مرجعه إلى أن مناطق سكناهم لا تقع في إطار مناطق هيمنة الإمام يحيى ، وفي هذا احترام والتزام من الإمام بمقتضيات معاهدة دعان ، ومهما

كانت نوايا الإمام يحيى من هذه الإحالة ، فإنها دليل واضح على ما كان يسود الأجواء بين الإمام يحيى والوالي محمود نديم بك من ود وتعاون . بل أن الإمام يحيى قد ذهب إلى ابعد من ذلك حينما أظهر حرصه على سلامة أحد مفارز الجيش العثماني النظامي التي غادرت تهامة إلى صنعاء ، مرورا بمنطقة نفوذه الإدارية والعسكرية ، وكانت القبائل قد تربصت بها فسارع الإمام إلى إرسال بعضا من قادة جنوده لمصاحبة المفرزة العثمانية ، وإيصالها إلى صنعاء سالمة آمنة . (23)

في المقابل لذلك أظهر الوالي محمود نديم غاية الحرص والتقدير لمكانة الإمام حينما أراد التوجه إلى الحديدة ، ثم اللحية ومن ثم إلى الشاهل بلواء حجة التابع لسلطة الإمام يحيى بحسب ما تنص عليه اتفاقية دعان ، فاستأذن الوالي الإمام يحيى في مراسلة عاملها وهو السيد احمد بن يحيى قاسم عامر (24) . بل إن الوالي محمود نديم بك كان يطلب النصح في بعض الأمور الهامة الداخلية من بعض مستشاري الإمام يحيى . من ذلك ما رواه الشرقي ، وهو أحد مستشاري الإمام يحيى ، حين قال :"ولكني لما وصلت صنعاء وصل الوالي المذكور لزيارتي ، وأرسل ببعض من الإكرام ، فوصلت إليه وأوضحت له إني لم أصل متعلقا بشيء إلا لخصوص ذلك الأمر الخاص الشرعي ، وكأنه لم يسغ له عدم تعلقي بشيء ، فطلب من النصيحة ما يجب ، فأشرت إليه أنكم اعتنوا في جذب أهل تهامة من طاعته حتى يكونوا عليه لا له ، فقبل الوالي تلك النصيحة وأرجعهم - وفد تهامة - إلى حضرة الإمام على رأي سديد ورأي أكيد". (25)

كذلك حرص الوالي محمود نديم بك على التنسيق مع الإمام وزيارته في مناطق نفوذه للتشاور في شأن أمور البلاد ، وخاصة ما يتعلق بتحالف الإدريسي مع الإيطاليين وحرص كلا الطرفين على فك الارتباط الإدريسي الإيطالي كما حدث في شهر شعبان من العام 1331هـ /1912م ،عندما أبدى الوالي محمود نديم بك رغبته في زيارة الإمام في منطقة إقامته بقفلة عذر للتباحث فيما يعود على البلاد بالخير، لكن الإمام يحيى كره لقاءه في ذلك المكان وأختار منطقة السودة من بلاد حاشد خشية منه على الوالي من جفاء أهالي قفلة عذر ، ولأنها أكثر مناسبة لمكانة الوالي . (26)

وتلخصت سياسة محمود نديم بك تجاه الإدريسي في محاولة مناصحته لحل اتفاقه وتحالفه مع الإيطاليين بداية ومن ثم العمل على إصلاح ما بينه وبين الإمام يحيى بن محمد حميد الدين . وقد سعى الوالي العثماني لكسب الإدريسي إلى جانبه إبان إرهاصات الحرب العالمية الأولى ، بل وبعد نشوبها ، رغبة في تشكيل وحدة إقليمية إسلامية في وجه الأخطار والمطامع الغربية المحيطة بالمنطقة ، ولتحقيق هذا الهدف خرج على رأس وفد كبير كان من ضمن أعضاءه السيد القاسم بن حسين بن محمد العزي ممثلا عن الإمام يحيى حميد الدين ، وحسب ما ورد في خطاب السيد جيرارد لوثر(Gerad lowther) للسيد إدوارد جراي(Edward Grey)(27) فإن الحكومة العثمانية كانت قلقة من أمرين مهمين أولهما الوجود الإيطالي في مناطق سيطرة السيد محمد بن علي الإدريسي

، وثانيهما : تزايد نفوذ الإمام يحيى حميد الدين ، لذلك حرصت الحكومة العثمانية على استقطاب الإدريسي(28) علّ ذلك يزيل القلق العثماني من الأمرين السابق ذكرهما . وتتجلى براعة محمود نديم بك السياسية في هذه المفاوضات على الرغم من فشلها في أنه اصطحب معه مندوبا عن الإمام يحيى . لأن الوالي العثماني كان يخشى أن ينظر الإمام إلى هذه المفاوضات على أنها محاولة لاسترضاء الإدريسي واستمالته على حساب الإمام يحيى مما قد يثير سخط الإمام واستياءه فيدفعه للنفور من العثمانيين والتمرد عليهم ، خاصة وأن قيام الحرب العالمية الأولى قد جعل العثمانيين - تحت طائلة الحصار البريطاني - يتقاعسون عن دفع المخصصات الشهرية التي التزموا بها بموجب اتفاقية دعان لبعض شيوخ القبائل من رعية الإمام ، وفي هذا ما قد يسوغ للإمام نقض الصلح معهم . بيد أن المساعي العثمانية لم تجد آذانا صاغية من السيد محمد بن علي الإدريسي . مما دفع الوالي محمود نديم بك للعمل بعد ذلك على حربه ومناصرة الإمام في صراعه معه.

لقد كان التناغم كبيرا بين الإمام يحيى والوالي محمود نديم بك في مواجهة المشكلات الداخلية التي تعترض كلا الطرفين . وكمثالا توضيحيا على هذا التناغم نعرض لمشكلة حراز(29) حينما تمكن الإدريسي من استمالة قبائلها ، فتشاور الإمام والوالي واجمعا أمرهما على أن يتولى الوالي محمود نديم بك مكاتبة رؤساء تهامة ومراجعتهم ومحاولة إقناعهم عن العدول عن مناصرة السيد محمد بن علي الإدريسي ، لمكانة الوالي محمود نديم بين هذه القبائل . وقد خاطب الوالي محمود نديم بك السيد يحيى علي أحد شيوخ القحرا(30) مظهرا له الود والتعاطف ، في نفس الوقت الذي يحذره فيه من مغبة التمرد على طاعة الإمام ، والسلطان العثماني مستعملا في خطابه أسلوب الوعظ الديني متهما المتمردين على أنهم من الذين باعوا دينهم وقومهم لخدمة النصارى(31). بيد أن هذه المناصحة لم تجد نفعا ، فأخبر الوالي محمود نديم بك الإمام يحيى بضرورة حربهم ، فأرسل الإمام إليهم حاكم العر(32) وجندا كثيفا من قبائل حاشد وبكيل، يرافقهم بعضا من الجند النظامي لهذه الحرب. وقد تولى الوالي محمود نديم بك الذي أقام في مناخة (33) إرسال المؤن للجيش(34) .

لقد كان الإمام يحيى في أمس الحاجة للدعم العثماني في صراعه مع السيد محمد بن علي الإدريسي ، ووجد في العثمانيين خير داعم فقد زود العثمانيون الإمام بالأسلحة والذخائر ، إضافة إلى دفع ديات القتلى من القبائل المقاتلة للسيد الإدريسي.(35).

عمد العثمانيون إلى تعطيل قوات الإدريسي في تهامة ، وتجميد تحركاته فيها بينما يتمكن الإمام يحيى من السيطرة على المناطق التي كانت موالية للسيد الإدريسي كجبل رازح وبني جُماعة وحجور(36) . ولما كان ولاء القبائل يتقلب تبعا لمصلحة القبيلة ، فقد بدأت كثير من القبائل اليمنية تنفض عن مناصرتها للإدريسي ، خاصة بعد تخلي الإيطاليين عنه بعيد سيطرتهم على طرابلس الغرب سنة 1331هـ/ 1912م . وقد شرع محمود نديم بك في قطع الإمدادات بمدرعات حربية

عثمانية . على أن هذه الحروب تغير مسارها بعد إعلان الحرب العالمية الأولى ودخول الدولة العثمانية فيها إلى جانب دول المحور.

المرحلة الثانية ولاية محمود نديم بك باليمن (1333-1337هـ/1914-1918م)

تميزت هذه المرحلة بقيام الحرب العالمية الأولى ، ومشاركة العثمانيين في هذه الحرب إلى جانب دول المحور . وتحولت اليمن في هذه المرحلة إلى حلبة للتسابق السياسي بين القوى العظمى لكسب تأييد الحكام المحليين . فقد سعى البريطانيون لكسب السيد محمد بن علي الإدريسي لصفهم بتوقيعه اتفاقية تحالف مع البريطانيين سنة1332هـ/1915م ، وأخرى في 1334هـ/ 1917م ، كذلك نجحوا في سنة 1332هـ/1915م في جذب أحد مشايخ ماوية (37) إلى صفهم . وسعوا في نفس الوقت للضغط على الإمام يحيى عن طريق حاكم لحج للانضمام إليهم في الحرب ، لكن الإمام تذرع بعقده اتفاقية الصلح مع العثمانيين في سنة 1330هـ / 1911م. وكان هدف البريطانيين فتح جبهات داخلية في اليمن لإشغال قوات العثمانيين عن مهاجمتهم في عدن . وذكر جيكوب أن البريطانيين سعوا لكسب كل زعيم تربطهم به معاهدة ، وعملوا على كسر تهيب هؤلاء الزعماء من الإمام والعثمانيين بتزويدهم بالدعم المسلح ، من جهة أخرى عمد البريطانيون إلى إصدار بلاغ أعلنوا فيه سنة 1333هـ/ 1914م أن الأماكن المقدسة وجدة مناطق محرمة ومحصنة من أي هجوم من السفن البريطانية ، لتأكيد حسن نواياهم تجاه الحكام العرب . ويضيف جيكوب أنه وقف على اتفاقية بين الإمام وسلطان لحج في بداية 1333هـ/1914م تقضي بامتناع الإمام عن القيام بأي نشاط في الحرب العالمية الأولى والكف عن المشاركة فيها . (38)

من جهتهم فقد سعى العثمانيون إلى إبقاء الإمام يحيى على موقفه السابق المهادن لهم مع الحرص على جره إلى صفهم بوسائل الترغيب الممكنة . فطالبه الوالي محمود نديم بك بجذب سلطان لحج إلى صفهم ، لكن محاولته تلك تكللت بالفشل لارتباط سلطان لحج بتعهدات موثقة مع البريطانيين.(39) ، ولم تجد محاولات محمود نديم بك والإدارة العثمانية نفعا في إغراءه بشتى الوسائل السلمية لجره إلى الوقوف إلى جانبهم في الحرب . وحري بنا أن نقف قليلا لنتأمل موقف الإمام يحيى من الحرب علّ ذلك يعيننا لا حقا على تحديد إطار شخصية محمود نديم بك .

أما بالنسبة لموقف الإمام يحيى من الحرب فقد كان حريصا على ألا ينقاد إلى حرب قد تكلفه غاليا في مستقبل الأيام ، لذلك فضل موقف الحياد المعلن منها ، فلم يناصب البريطانيين العداء ، ولم يعلن دعمه الكامل للعثمانيين . ولعل الإمام يحيى رأى أن من الأصلح له شخصيا أن يقف موقفا إيجابيا من حروب العثمانيين في الجبهة الشمالية ضد السيد محمد بن علي الإدريسي ، لأن في ذلك مصلحة مباشرة له في حرب عدوه اللدود ، وأن هذا الموقف قد يفسَّر من قبل البريطانيين على أنه موقف شخصي من الإدريسي وليس من الحرب برمتها . من جانب آخر عارض بشدة الحملة العثمانية على

مناطق الجنوب ولم يشارك فيها رسميا ، التزاما منه كما يبدوا بالوعد الذي قطعه على نفسه لسلطان لحج والبريطانيين.(40)

لقد وقف الإمام يحيى من الحرب العظمى موقف المحايد مع ميله العاطفي للعثمانيين بحكم الرابطة الدينية كما ذكرنا سابقا ، على الرغم من تحسسه منهم ومن السيد الإدريسي أيضا ، وحيث وعلاوة على كرهه للبريطانيين لاحتلالهم مدينة عدن وهيمنتهم على النواحي التسع التي يرى الإمام أنها جزء لا يتجزأ من أرض اليمن الموحدة وهذا ما نادى به لاحقا بعد الاستقلال برفعه شعار اليمن الكبرى . فقد كان متوجسا من الدولة العثمانية التي ناصبت دولة الأئمة العداء خلال مختلف مراحل تواجدهم العسكري في اليمن ، ولا يعدوا صلح دعان أن يكون صلحا مؤقتا كغيره من المعاهدات التي سبق أن ابرمها أسلافه معهم . كما لم يخف توجسه من السيد محمد بن علي الإدريسي جراء تحالفه مع النصارى ممثلين بالإيطاليين ومن ثم البريطانيين.(41) ، ومع كل ذلك فلا يمكن إغفال رغبته في الحفاظ على قواته وإمكاناته المادية لاستعمالها لا حقا فيما يحقق طموحه السياسي .(42) ، لذا رأى أنه من الحكمة مراقبة أحداث الحرب ،دون الدخول فيها وانتظار ما ستسفر عنه ليحدد ولاءاته بناء على رؤى واضحة.

ومن الثابت أن جبهة القتال في اليمن كانت هادئة نسبيا على صعيد العمليات العسكرية مقارنة بالجبهات الأخرى في الشرق الأوسط أو في أوروبا ، بيد أن الجبهة اليمنية لم تخلوا من تحركات عسكرية كان لها الأثر الكبير على مجريات الأمور السياسية في اليمن . فقد عمد العثمانيون إلى تسيير حملة عسكرية كبيرة سارت من صنعاء لمهاجمة البريطانيين في عدن والمحميات . وقد نجح القائد العسكري العثماني العام علي سعيد باشا في السيطرة على لحج مكتفيا بذلك (43) لتنتهي العمليات العسكرية البرية في اليمن عند هذا الحد ، إلا ما كان يدور في عسير على يد السيد الإدريسي ، أو ما كانت تقوم به السفن البريطانية في البحر الأحمر. ومن الجدير بالذكر فأن الإمام قد امتنع عن المشاركة الرسمية في هذه الحملة تمشيا مع موقفه المحايد من الحرب ، لكنه وعلى الرغم من ذلك فقد سمح لمن أراد التطوع من أتباعه بالمشاركة فيها ، وتعهد لمحمود نديم بك عند لقائهما في عمران سنة 1333هـ/1914م بعد إعلان دخول الدولة العثمانية الحرب إلى جانب ألمانيا ودول المحور بأن يقدم المساعدات الممكنة للعثمانيين . وقد حُصرت هذه المساعدات في إقراض العثمانيين بالمال ، أو تزويدهم بالمؤن ، وبناء على ذلك تم إقراض العثمانيين اثنا عشر ألف قدح من الحبوب.

جدير بالذكر فأن الحصار الذي فرضه البريطانيون على السواحل اليمنية ، إضافة إلى تمركز قوات السيد محمد بن علي الإدريسي في تهامة ، قد أضر بكثير من الحاميات العثمانية باليمن ، وتعدا ذلك إلى اليمن برمته الذي عاني من تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية إلى أقصى درجاتها . (44) ، وشاع بين أوساط اليمنيين إبان تحرك الجيش العثماني للجنوب ، أن الإدارة العثمانية قررت التخلي

عن الشمال تحت وطأة الحصار البحري البريطاني ، فسارع الوالي محمود نديم بك بنفي ذلك في برقية أرسلها للإمام يحيى ينفي فيها تلك الإشاعة ويطلعه على مسير الجيش وما حققه من انتصارات ، وما صادف الجيش من تقاعس من نتيجة لخروج بعض أتباع الإمام . ولعل في برقية محمود نديم بك هذه إلماحا بأن الإمام وإن لم يبد حماسا لخوض الحرب إلى جانب العثمانيين ، إلا أنه كان متعاطفا معهم بحكم الرابطة الدينية ، لذا حرص الوالي على إخباره ببعض الإنجازات التي حققتها الحملة ، ولعل العتب الذي أبداه محمود نديم بك على الإمام بتأخره في إرسال الدعم المالي يوحي بأن الموقف المعلن من الإمام يحيى كان الحياد ، بينما موقفه غير الرسمي كان الدعم والتعاطف الذي لا يجره إلى الحرب ضد أي من الطرفين .

لقد تباين موقف الإدارة العثمانية في اليمن من موقف الإمام يحيى المعلن فعلى حين أثار هذا الموقف القائد العسكري العثماني العام علي سعيد باشا الذي طالب وألح على الإمام في ربيع الأول 1337هـ/3 نوفمبر 1918م ، إرسال مندوبيه لاستلام مناطق الجنوب (لحج ، الصبيحة ، الحواشب ، الضالع ، يافع العليا والسفلى ، وبلاد الفضلي) ، التي تمكن هذا القائد من السيطرة عليها ، وتقاعس الإمام يحيى في الاستجابة لهذا الطلب . نجد الوالي محمود نديم بك يستمر في علاقته الودية مع الإمام ، وإن كان قد ألمح للإمام ببعض العتب الهادئ . فقد ورد في إحدى رسائله ، وكان الإمام قد استفسر عن سبب تأخر العثمانيين في السيطرة على النواحي التسع ، على الرغم من أن الوالي اخبره بضرورة الإسراع بالسيطرة عليها ، حيث ذكر الوالي بعد سرده عددا من الأسباب كان من ضمنها " وعدم مساعدتكم – أي الإمام يحيى- لتوجهنا لهذه الجهات بوقتها ، وإخطاركم لنا بعدم إجراء الحركات العسكرية إلا بعد استمالة أهالي النواحي التسع ، وبعدم التعرض إلى يافع ولحج"(45) .

ويبدوا أن الإمام يحيى والوالي محمود نديم بك كانا قد استشعرا هزيمة الدولة العثمانية في الحرب ، وأن أمر حكم اليمن سوف لن يخرج عن القائدين الأبرزين على الساحة اليمنية : فإما الإمام يحيى حميد الدين الذي وقف محايدا، أو السيد محمد بن علي الإدريسي ، الذي ارتبط بحلف مع البريطانيين ، ولما كان الوالي محمود نديم بك والسيد محمد بن علي الإدريسي على طرفي نقيض ، عمل الوالي محمود نديم بك على الحفاظ على الود مع الإمام يحيى ، بل وتمكينه كما سنرى لا حقا من الاستحواذ على ممتلكات العثمانيين بها . ويتساءل الباحث عن المبررات التي كانت وراء مواقف محمود نديم بك الإيجابية هذه من الإمام يحيى ؟ فهو لم يتخذ الموقف الذي كان عليه القائد العسكري العام في الجنوب علي سعيد باشا من الإمام ، على الرغم من أن مصلحة الدولة العليا تقتضي في هذه المرحلة الحاسمة توحيد المواقف السياسية للإدارة العثمانية ، بل على العكس من ذلك كان مناصرا للإمام في موقفه حتى اتهم من قبل علي سعيد باشا بأنه – أي محمود نديم بك- والإمام يحيى عملا معا

على تشويه سمعة هذا القائد العسكرية ، وأنهما امتنعا عن المشاركة في الحرب التي كان يخوضها في الجنوب . (46)

والسؤال : ما هي حجم صلاحيات الوالي محمود نديم بك في ولايته ، وما طبيعة العلاقة بينه وبين القائد علي سعيد باشا ، وهل كان الأخير يأتمر بأمر الأول ، وهل كان للقب الباشوية الذي يتمتع به علي سعيد ولم ينله الوالي محمود نديم إلا مجاملة بعد عام 1330هـ/ 1912م دلالة تعكس سبب الخلاف بينهما ؟.

من الثابت أن محمود نديم عمد إلى لتقوية مركز الإمام في اليمن بعد الحرب بأن سلمه ممتلكات العثمانيين بها ، على عكس ما تقضي به اتفاقية السلام ، التي تنص على أن يتسلم الحلفاء باعتبارهم الدول المنتصرين في الحرب ممتلكات الدول المهزومة ، وعلى ذلك فإن بريطانيا هي التي يحق لها وراثة ممتلكات العثمانيين في اليمن وليس الإمام يحيى حميد الدين الذي لم يشارك في هذه الحرب.

المرحلة الثالثة :1337-1343هـ/ 1918-1924م (مرحلة ما بعد الولاية)

تميزت سياسة الوالي العثماني محمود نديم بك في هذه المرحلة بعدائه الشديد للبريطانيين ، وسعيه الدءوب لتأجيج عداوة القبائل والقيادات اليمنية عليهم ، وعلى كل من تحالف معهم من القيادات العربية كالإدريسي ، والشريف الحسين بن علي حاكم الحجاز . وقد شهدت هذه المرحلة الإقرار بهزيمة دول المحور . وبدء العمل في تقسيم تركة الحرب بعد مسارعة الصدر الأعظم العثماني عزت باشا إلى طلب الصلح من البريطانيين والفرنسيين ، فعقدت الهدنة بين الطرفين في25 محرم 30/1337 أكتوبر 1918م . وكانت الهدنة قد قضت بأن تضع الدولة العثمانية قواتها البحرية والبرية ومعداتها بيد البريطانيين ، وبناء على ذلك صدرت أوامر الأستانة لقواتها عن طريق الحلفاء بالتسليم إلى أقرب مركز من مراكز الحلفاء . وقد تلقى محمود نديم بك أمرا تلغرافيا بالشفرة السرية ، وصل إلى لحج عن طريق عدن ، وعليه اسم الصدر الأعظم عزت باشا ، فرأى محمود نديم بعد التشاور مع الإمام يحيى ، أن هذه الأوامر لا تعنيه ، فهي صادرة من لندن وليست من الأستانة . (47) .

وقد سارع الوالي محمود نديم بك وقائد القوات العثمانية باليمن توفيق باشا بدعوة الإمام للقدوم إلى صنعاء واستلام قصر غمدان (وهو قصر الحكم) ، والمعدات الموجودة في صنعاء وسائر الجهات اليمنية. وأرسل كل من الإمام يحيى والوالي محمود نديم بك ، والقائد العسكري توفيق باشا (القائد العام للقوات العثمانية باليمن) أمرا لقائد القوات العثمانية في لحج علي سعيد باشا ، يطالبونه فيه بعدم الاستسلام للبريطانيين ، وعدم تسليم الأسلحة والمعدات العثمانية . بيد أن القائد علي سعيد باشا اختار التسليم للبريطانيين لقناعته بأن الحرب قد انتهت ، وأن مهمته كقائد عسكري تتوقف عند إطاعة الأوامر الواردة إليه من الأستانة .

ونتوقف قليلا عند موقف كل من القائدين العثمانيين في اليمن . فالقائد العسكري علي سعيد باشا ، كان قائدا عسكريا صرفا ،أدرك بأن الحرب في واقع الأمر قد انتهت ، وأن الدولة العثمانية قد هزمت فيها ، وأن التسليم حاصل إن آجلا أم عاجلا ، وأن أمر التسليم قد ورد إليه من قيادته العليا ، فلم إذا إضاعة الوقت ، وإراقة مزيد من الدماء . ولعل القائد علي سعيد باشا كان يحمل في نفسه كثيرا من التحفظات على الإمام يحيى ، والوالي محمود نديم بك بل وحتى القائد العسكري احمد توفيق باشا . هذه التحفظات دفعته إلى المسارعة بالتسليم ، فقد رأى هذا القائد أن كل من الوالي محمود نديم بك ، والإمام يحيى حميد الدين قد خذلاه عندما كان يلح في طلب العون في الجبهة الجنوبية ، فلم يكلف الإمام نفسه بذل ذلك الدعم ، علاوة على أنه – أي الإمام قد تقاعس عن استلام مناطق الجنوب عندما طلب منه علي سعيد باشا ، تحقيق هذا الأمر بعد سيطرته عليها ، بل أن الإمام والوالي زيادة على ذلك قاما باتهام علي سعيد باشا بأنه متواطئ مع الأعداء .(48)

ويوضح علي سعيد باشا موقفه هذا بجلاء في برقيته التي بعثها لأحمد توفيق باشا في 27 تشرين أول رومي1334(1337هـ) 1918م عندما قال "وبما أن حكومتنا المتبوعة قد قبلت أساسات الصلح مع حكومة انكلترة وحلفائها بتاريخ 18 تشرين أول سنة 1334 رومي ، وبعد أن رست مراكب الإنكليز وحلفائهم في مراسي دار السعادة بالصورة الودية وسويت أمور وضع الهدنة ، فبهذه الصورة التي هي عن قواعد الهدنة المبلغة رسميا من حكومة انكلترة حصل هيجان عظيم بين العساكر والأهالي وفي داخل الخطط الحربية ، فتلافيت الأمر مسرعا لأجل تسكين ذلك الهيجان ... وكما ظهر لي من جواب سيادة الإمام بتعبير كلمة (لقد ساءنا) قاصدا بهذا التعبير تقبيحي وما حمله على ذلك إلا مقاصدكم ، وأغراضكم الخصوصية لبعض أسباب ، كاشتراككم مع والي اليمن بنشرياتكم وإشاعتكم غير اللائقة والمخالفة للحقيقة ، قاصدين إهانتي عند عموم أهل اليمن المحترمين ... إن كل ذلك ليس له عندي أهمية بمثقال الذرة لمالي من سوابق الخدمة خصوصا في هذه التربة المقدسة اليمانية ، وما قمت به من المحافظة والمدافعة والثبات والمحاربة المتواصلة ضد العدو في باب المندب ، وباب عدن ، منذ أربع سنوات ، وكل ذلك بمساعدة ومظاهرة رؤساء مجاهدي وأهالي لواء تعز لما بذلوا من أرواحهم وأموالهم خدمة للدين والوطن ، أما حضرة الإمام ووالي الولاية وجنابكم فلم يكن لكم نصيب في شيء من المعونة المادية أو الفعلية نحونا سوى الكلام لا غير مع حرماننا من كل شيء" .(49)

أما الوالي محمود نديم بك ، فقد كانت له أجندة أخرى تختلف في أسبابها ومراميها عما كان لدى علي سعيد باشا . فقد كان الوالي العثماني السابق مدفوعا في موقفه الداعم للإمام يحيى بعدائه الشديد للبريطانيين وحلفائهم في المنطقة ، وحماسه وإيمانه بإمكانات الإمام يحيى حميد الدين الشخصية . وهناك تفسيران لهذا الموقف من الوالي السابق ، فقد يكون مدفوعا بحكم العاطفة الدينية الجياشة لديه

، فهو مرتبط بالحكومة العثمانية مؤمن بجدوى استمرارها لأن فيها الخير والأمن لليمن ، وأن الإمام يسايره في نفس الاتجاه ، وأن البريطانيين وحلفائهم يعملون على ضرب الإسلام والمسلمين في هذه الرقعة اليمانية المباركة ، من جهة أخرى، يمكن لنا تفسير هذا الحماس والعداء برغبة الوالي السابق ضمان منصب كريم ومستقبل وظيفي مرموق له في اليمن ، بعد أن أيقن بهزيمة الدولة العثمانية . لذلك عمل الوالي محمود نديم بك على المماطلة في الاستسلام بغرض كسب الوقت ، ليمكن الإمام من تثبيت حكمه في المناطق التي سيرثها عن العثمانيين . بل لقد ذهب لأكثر من ذلك عندما أخذ يراسل زعماء القبائل داخل اليمن ، يحثهم على مواجهة الدسائس البريطانية ، وضرب حلفائهم في المنطقة كما يتضح من رسالته إلى السيد احمد فتيني شيخ مشايخ الطايف (قبيلة الزرانيق)(50) ، ويبدوا أن محمود نديم بك كان يريد إبقاء حالة الحرب في منطق تهامة وبالذات بالقرب من الحديدة لإزاحة الإدريسي عنها تنفيذا لرغبة ومصلحة الإمام يحيى .(51)

ولم يكتف محمود نديم بمراسلة القوى اليمنية المحلية، وإثارتها ضد البريطانيين وحلفائهم ، بل عمل على مراسلة عدد من القيادات العربية والإسلامية خارج اليمن ، فأرسل إلى مصطفى كمال باشا حاكم أنقرة يوضح فيها ما سببته هدنة 1337هـ/ 1918م من إحباط لدى اليمنيين ، وكيف أن الجنود العثمانيين الأبطال اضطروا للتسليم متحملين بذلك المذلة والمهانة نتيجة لأخطاء الغير، وأن ما يتحملونه في اليمن الآن فوق ما يمكن أن يتحمله بشر . لكن مسلمو اليمن محبون للأتراك ، وأنهم إلى هذه اللحظات هم مرتبطين بالحكومة العثمانية ، ولا يبغون عنها انفصالا ، وأنهم ينظرون إلى حكومة تحكمهم بما كانت عليه الأوضاع في وقت السلم ، ويؤكد الوالي السابق لمصطفى كمال باشا (52)على ما كان قد سبق وأخبره فيه في مراسلاته السابقة في : (الخامس من أكتوبر 1929، والسابع من نوفمبر 1920، والرابع عشر من مايو 1921، وأخيرا في السابع من يوليو 1921م) . واخذ الوالي السابق يظهر أهمية الإمام يحيى في اليمن ودوره الإيجابي مع الحكومة العثمانية منذ توقيع اتفاقية دعان ، وأثناء الحرب العالمية الأولى . وأن الإمام يحيى لا زال وفيا للدولة العثمانية ، ولخليفة المسلمين قلبا وقالبا ، وأنه يفضل البقاء تحت المظلة العثمانية على أن يكون ضعيفا نهبا للقوى الغاشمة . وأوضح محمود نديم بك أنه بعد انسحاب العثمانيين من الحديدة نتيجة للهدنة المشئومة ، احتلت بريطانيا المدينة وأدارتها مؤقتا ، وانه وبإشارة منه – أي محمود نديم بك- ثارت قبائل المنطقة وخاصة قبيلة الزرانيق ، وهاجمت الحديدة ، واستمروا في هجومهم حتى اضطر البريطانيون للانسحاب ، وإحلال الإدريسي في موضعهم . وأن رغبات الأهالي في المنطقة تتركز حول طرد الإدريسي من الحديدة ، وأنهم طلبوا منه العمل على تحقيق ذلك .

وأوضح الوالي السابق أيضا أن اليمن بتعدادها البالغ خمسة ملايين نسمة بما في ذلك حضرموت يسودها التفكك والانقسام ، وأن الرجل الذي يقف وحيدا في مواجهة الأعداء هو شيخ

مشايخ قبيلة الزرانيق السيد احمد فتيني ، الذي كان ثائرا على العثمانيين ، لكن وجراء تعامله ونصحه الدائم له قد أصبح من اشد المتمسكين بالحكم العثماني ، حتى أنه قد تأثر كثيرا من الانسحاب العثماني من الحديدة ، لأنه سيصبح تحت رحمة الإدريسي وحلفائه البريطانيين . لذلك فقد أعلن الجهاد عليهم بين قبائل المنطقة لإعادة الحكومة العثمانية مرة أخرى . وأشار محمود نديم بك بأنه لو ذهب بالقرب من الحديدة لتمكن من تحريرها وإعادتها لحظيرة السلطنة .

وأفاد الوالي السابق أن جميع الاتصال سوف تتم عن طريق مصوع عبر الحكومة الإيطالية التي وافقت على أن تكون هي وسيط الاتصالات . وعبر محمود نديم بك بأن أهالي تهامة علاوة على الإمام وجميع الزيديين والشوافع ، يرغبون في إرسال وفد منهم لمؤتمر أنقرة لكنهم غير قادرين على ذلك بسبب الحصار البري والبحري المفروض عليهم من قبل البريطانيين والإدريسي ، وأنهم عوضا عن إرسال الوفد سيرسلون احد الأعيان وهو السيد علي الأهدل كممثل لهم في أنقرة ليعبر عن مدى ولائهم وارتباطهم بالعثمانيين . وأفاد محمود نديم بك بأن أهالي تهامة وقبائلها إذا ما رأوا فرقة من الجيش تحمل العلم العثماني تصل إلى أي من موانئ اليمن ، سيفرحون بوصولها ، ولا شك أن ذلك سيغير الوضع القائم في تهامة . ويسترسل محمود نديم بأن سلامة اليمن وأمنها يكمن في ظل الحكومة العثمانية ، وما عدا ذلك يكون معناه القتال وسفك الدماء . ويطالب محمود نديم بك حاكم أنقرة بعدم إهمال اليمن ، وإرسال الدعم بأسرع وقت ممكن عن طريق إرسال سفينة تحمل العسكريين والمعدات والأموال لتحقيق الغرض المنشود . (53)

ولضمان تحقيق هذه المهمة أرسل الوالي السابق محمود نديم بك رسالة شخصية لحاكم عصب الإيطالي السيد لينشوني (Linchoni) يوضح له الأعمال السيئة التي تقوم بها بريطانيا وحليفها السيد محمد بن علي الإدريسي في اليمن ، ويطلب منه عمل كل ما يمكن لضمان وصول السيد علي الأهدل إلى غايته في الأستانة وأنقرة . منوها بالعلاقات التي تربط الطرفين ببعضهما البعض.(54)

وفي الإطار نفسه فقد راسل الأمير عمر طوسون باشا موضحا ، الممارسات السيئة للحكومة البريطانية في اليمن وما آلت إليه الأوضاع بها ، وأسباب بقائه وبعض الجند ، وأعضاء من الإدارة العثمانية فيها ، وذلك لحاجة الإمام يحيى واليمن إليهم في هذا الوقت العصيب . كما أوضح الوالي السابق في خطابه ، أن اليمنيين كافة لا يرتضون **بديلا عن** الدولة العلية حاكما ، وأن اليمنيين يتوقون لرؤية الجنود العثمانيين عائدين لليمن ، وسيذلون من اجل ذلك كل غال ونفيس . وأوضح أنه قد عرض كل هذه الأمور على مصطفى كمال باشا حاكم أنقرة ، والزعماء الأوربيين في مؤتمر الصلح . وطالب محمود نديم بك الأمير عمر طوسون باشا ببذل الجهد ، لعرض القضية اليمنية للمصريين والعالم أجمع عن طريق الصحف المصرية .(55)

وبنظرة فاحصة لهذه الرسائل يتضح لنا مدى العداء الذي كان يكنه محمود نديم بك للبريطانيين وحلفائهم –على وجه التحديد السيد محمد بن علي الإدريسي . هذا العداء الذي استمر حتى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ورحيل القوات العثمانية عن اليمن إثر هدنة عام 1337هـ/1918م . ومن الجدير بالذكر أن الوالي السابق لليمن قد قرر البقاء في اليمن للعمل في خدمة الإمام يحيى حميد الدين، عندما عرض عليه الإمام يحيى ذلك ، حيث طالبه الإمام بالبقاء مع من يريد من الموظفين الإداريين ، والعسكريين للمحافظة على العباد ، والانتفاع بهم في إدارة البلاد ، ووعده الإمام بإبقاء مخصصاتهم وتكاليف إقامتهم في اليمن . على أن قائد القوات العثمانية أحمد توفيق باشا قد قرر اللحاق بعلي سعيد باشا والاستسلام للحلفاء . (56) وكان بقاءه في خدمة الإمام إيذانا باستمرار عدائه للبريطانيين ، وحلفائهم في المنطقة . في الوقت الذي ظل السيد محمود نديم بك يعمل بذكاء وإخلاص دائبين لخدمة مصالح الإمام وتقوية نفوذه في اليمن . فالحرب العالمية الأولى انتهت حقيقة ، وبدت نتائجها تطفوا على الساحة اليمنية ، وكان على محمود نديم بك أن يعمل في مهمته الجديدة لتجيير ثمار بعض هذه الحرب لسيده الجديد . وكان من نتائجها ارتفاع شأن السيد محمد بن علي الإدريسي في منطقة تهامة باعتباره شريكا في الحرب إلى جانب الدول المنتصرة . فعمد محمد نديم بك إلى إثارة القبائل على الإدريسي والبريطانيين ، مستغلا حالة الحصار الذي فرضه البريطانيون والإدريسي على كافة الاتصالات باليمن ، حتى غدت اليمن معزولة بشكل يكاد يكون كاملا عن العالم الخارجي . لقد ساعد هذا الوضع محمود نديم بك على إثارة القبائل بحجة أن القوات العثمانية لم تهزم ، وأنها عائدة لليمن .(انظر رسائل محمد نديم بك للسيد احمد فتيني شيخ مشائخ قبيلة الزرانيق ، ورسالته لشيخ قبيلة القحرا في الملاحق).

ومن نتائج هذه الحرب ايضا أن الدولة العثمانية كانت قد هزمت فيها ، وكان لزاما عليها نقل ممتلكاتها ، وتسليم أسلحتها للدول المنتصرة ، وعلى وجه الخصوص بريطانيا . ولما كانت مناطق اليمن الأسفل من ضمن مناطق الحكم العثماني كما نصت على ذلك اتفاقية دعان ، فإن هذه الملكية ستؤول حتما للمنتصرين (البريطانيين) . وقد سعى محمود نديم بك بكل فعالية إلى تسليم ما تحت يد العثمانيين من مناطق وأسلحة للإمام يحيى حميد الدين . وكانت حجته في ذلك تكمن في أن ترك المناطق العثمانية في اليمن ، بعد صدور أمر ترحيل القوات العثمانية سيجعلها دون قيادة شرعية ، الأمر الذي سيؤدي إلى انتشار الفوضى واختلال الأمن ، فعمد إلى تسليم هذه المناطق للإمام يحيى بحجة أنه الأقدر والمؤهل لإدارتها ، بل إن الوالي سارع بدعوة الإمام للقدوم إلى صنعاء واستلامها من الإدارة العثمانية ، ودعا محمود نديم بك الجنود العثمانيين لتسليم أنفسهم للإمام . كذلك سعى محمود نديم بك إلى تسليم كافة المعدات والأسلحة العثمانية للإمام يحيى ، على عكس ما تقتضيه اتفاقية الهدنة بين العثمانيين والحلفاء . وقد تحجج الوالي العثماني السابق بأن للإمام ديون مستحقة

عند العثمانيين ، وأن في تسليمه هذه المعدات مقايضة للإمام على الديون التي سوف لن يتمكن العثمانيون من الوفاء بها . (57).

بهذا نرى أن السيد محمود نديم بك قد بدأت مهمته الجديدة في خدمة الإمام يحيى بتحقيق نصر مادي ومعنوي للإمام ، فعلى الرغم من عدم مشاركة الإمام في هذه الحرب واتخاذه جانب الحياد ، إلا أنه نال جزءا من ثمارها . وقد تمثلت هذه الثمار في السيطرة على كثير مما كان تحت يد العثمانيين من مناطق باليمن ، وامتلاكه بعضا من المعدات والأسلحة العثمانية أيضا ، وما كان ذلك ليتأتى للإمام يحيى لولا وقوف الوالي العثماني السابق لليمن محمود نديم بك إلى جانبه وتمكينه من هذه الممتلكات.

استمر محمود نديم بك على علاقته العدائية مع البريطانيين إبان فترة خدمته للإمام يحيى ، وقد تجلى ذلك واضحا في استمرار إثارته للقبائل في تهامة . وأدى هذا الدور الذي كان يلعبه محمود نديم بك في اليمن إلى شكوى المسئولين البريطانيين في عدن من أعماله لرؤسائهم في الحكومة البريطانية . فقد كتب المقيم السياسي البريطاني في عدن لمفوض الهيئة البريطانية في الأستانة يوضح رغبة المقيم السياسي في أن يغادر محمود نديم اليمن إلى الأستانة.(58) كذلك عبرت رسالة أخرى من المقيم السياسي في عدن لوزير المستعمرات البريطاني في فبراير 1922م عن رغبته في مشاهدة محمود نديم وأسرته يرحلون إلى الأستانة ، واقترح المقيم السياسي ترحيله عن اليمن وبأسرع وقت ممكن على حساب الحكومة البريطانية. (59)

غير أن ذلك لم يتحقق حيث استمر محمود نديم بك يعمل في خدمة الإمام يحيى حتى عام 1926م تقريبا ، وكان خلال هذه الفترة كما يبدوا مستشاره السياسي ، خاصة فيما يتعلق بسياسة الإمام يحيى الخارجية . وكان خلال ذلك حريصا على استمرار ارتباط الإمام يحيى بالحكومة العثمانية على الرغم من هزيمتها ، ولعله كما يبدوا من تحركاته السياسية كان اشد ارتباطا بالحكومة التركية في أنقرة ، بمعنى آخر كان محمود نديم بك يحاول إيجاد تحالف ما بين الإمام وبين ألحكومة العثمانية التي ستخرج من ركام الحرب ، وكان مصطفى كمال باشا هو المعول عليه في هذه المرحلة . لذلك حرص محمود نديم بك على الاتصال به ، وحثه على الوقوف إلى جانب إمام اليمن نظرا لحاجة اليمنيين إلى ذلك ، وإخلاص الإمام يحيى حميد الدين للحكومة العثمانية في سابق الأزمنة ، ووقوفه إلى جانبها بالدعم والمساعدة في الحرب العظمى . (60).

وقد حرص البريطانيون على متابعة تحركات محمود نديم بك داخل اليمن وخارجها متابعة دقيقة، ورصد هذه التحركات وتحليلها وربطها مع غيرها من تحركات الشخصيات اليمنية الأخرى ، في دلالة واضحة على مدى إدراك البريطانيين للدور الذي يلعبه محمود نديم في رسم سياسة الإمام يحيى تجاه البريطانيين . يدلنا على ذلك الرسائل المتبادلة بين المقيم السياسي البريطاني في عدن ، والقناصل البريطانيين في كل من جدة ، وروما ، وبيروت ، مع وزير المستعمرات البريطاني في عام

1344هـ/ 1925م ، فقد رصدت مجموعة الرسائل هذه تحركات محمود نديم من اليمن إلى أنقرة في مهمة سياسية ترويجية للإمام يحيى حميد الدين عند حاكم أنقرة ، حيث ورد فيها أن السيد محمود نديم بك كان ينوي الذهاب إلى روما ، وأنه غادر اليمن في مهمة طلب مساعد وأسلحة للإمام ، إلى جدة متجها إلى روما على ظهر سفينة ايطالية ، في نفس الوقت الذي توجه فيه وزير خارجية الإمام يحيى السيد عبد الله بن إبراهيم إلى عصب في زيارة لحاكمها الإيطالي . مما يوضح في نظر البريطانيين مدى التقارب بين الإمام يحيى والإيطاليين في هذه المرحلة ، وأن هذا التقارب لابد وأن يكون بإيحاء من الوالي السابق الذي تربطه علاقات جيدة بحاكم عصب الإيطالي ، وأن رحلة محمود نديم بك لإيطاليا إن حدثت فهي لتحقيق منفعة ما للإمام يحيى . بيد أن هذه الرحلة إلى روما لم تتم لأسباب لم تذكرها الوثائق البريطانية وبدلا من ذلك ، غيَر محمود نديم بك وجهته عند وصوله إلى ميناء السويس من ايطاليا إلى بيروت متجها إليها على ظهر السفينة العباسية . (61)

وتصف المراسلات البريطانية تفاصيل إقامة محمود نديم بك في بيروت بكل دقة حيث تشير الوثائق إلى أنه أقام في فندق كان ملتقى للكماليين من الأتراك ومن يشايعهم من العرب ، فتروي أنه التقى بالشيخ عبد الباسط الونسي ، مالك جريدة إقبال المناصرة للترك ، كذلك التقى بالشيخ محمد محرم الذي كان معروفا بتعاطفه مع الأتراك ، وأن هذان الشخصان كانا على اتصال يومي به طوال فترة بقائه في بيروت . كما تروي المراسلات أن الوالي السابق كان قد زار أثناء بقائه في بيروت حاكم لبنان الكبرى ، والأمير سليم ابن السلطان عبد الحميد الثاني ، وغيرهم من الأمراء العثمانيين المقيمين في بيروت . كما زاره الرحالة والكاتب أمين الريحاني الذي كان مسافرا معه في نفس السفينة لعدد من المرات ، وأن الأمير سعيد الجزائرلي قد جاء لرؤيته من سوريا ، بيد أنه لم يتمكن من ذلك . إن هذه المتابعة الدقيقة لمحمود نديم بك من قبل البريطانيين دليل واضح على مدى إيمان البريطانيين في اليمن بأهمية الدور الذي كان يلعبه محمود نديم بك في اليمن ، من جانب آخر يمكن للباحث أن يتحسس مدى أهمية شخصية محمود نديم بك وتوجهاته السياسية من خلال لقاءاته في بيروت . فلم تمثل شخصية محمود نديم بك صورة الوالي العثماني الذي انتهت صلاحية ولايته بهزيمة الدولة العثمانية ، بل مثلت شخصيته في تحركاتها ولقاءاتها الصورة القيادية للزعيم الذي يتطلع للعب دور بارز على مجرى الساحة السياسة العربية والإسلامية ، من خلال تمثيله للإمام يحيى حميد الدين .

ولعل في لقاء محمود نديم بك بالأمير سليم بن السلطان عبد الحميد الثاني ما يوحي بمدى ارتباطه بأسرة السلطان عبد الحميد الثاني ، ولعل هذا يلقي بعض الظلال على ما لقيته هذه الشخصية السياسية من عدم احتفال بها بعد قيام تركيا الحديثة .

وقد ذكر محمود نديم بك أثناء بقائه في بيروت أنه تلقى دعوة من مصطفى كمال لزيارة أنقرة للتفاوض معه كمندوب عن الإمام يحيى ، لذلك فهو متجه إليها . ويفسر البريطانيون توجهه إلى أنقرة

كان لطلب أسلحة وذخائر لدعم الإمام يحيى حميد الدين في حروبه ضد السيد محمد بن علي الإدريسي، وكان محمود نديم بك قد ظل في بيروت مدة أسبوع ثم انتقل إلى طرابلس ومن هناك وصل إلى حمص فحماة فحلب ومن ثم إلى أنقرة.

وتشير المراسلات البريطانية إلى أن وصول محمود نديم بك إلى بيروت كان متزامنا مع وصول ضابط تركي كان قد أرسله الملك عبد العزيز آل سعود ، الأمر الذي قد يلقي بعض الظلال على ارتياب البريطانيين وتخوفهم من احتمال قيام تحالف تركي عربي ضد المصالح البريطانية في الجزيرة العربية . فمحمود نديم بك كان ممثلا للإمام يحيى ، والضابط التركي الذي لم تشر الوثائق إلى اسمه كان مرسلا من الملك عبد العزيز ، علاوة على وجود قيادات تركية وعربية ممتلئة بالحماس القومي العربي والتركي رافضة ومحبطة مما آلت إليه الأمور العربية والتركية بعد الحرب العالمية الأولى . (62)

جدير بالذكر فإن العلاقات بين الإمام يحيى حميد الدين ومحمود نديم ، كانت رهينة بحاجة الإمام لدعم الوالي السابق لليمن ، ليتمكن الإمام من وراثة ممتلكات العثمانيين في اليمن ، ولما تحقق له هذا المراد ، بدأ الشك يرتاب الإمام يحيى في حقيقة نوايا محمود نديم بك وإخلاصه له . فقد ذكرت بعض المصادر التي بين أيدينا ، أن الشك بدأ يساور الإمام منذ أحداث باجل سنة 1919م ، والتي فشلت فيها مساعي الإمام يحيى التي قادها محمود نديم بك لاستخلاص بعثة جيكوب البريطانية من أسرها ، وإكمال طريقها إلى صنعاء . فقد أشيع في صنعاء أن محمود نديم بك كان يلعب دورا مزدوجا بتأييده لقبائل القحرا (63) ، وأنه وراء عدم تمكين قبائل القحرا من وصول البعثة إلى صنعاء، وأن جل ما توصل إليه محمد نديم بك ، بعد قضائه ما يزيد على شهرين من النتائج هو عودة البعثة إلى عدن . على أن الأمور لم تصل إلى حد القطيعة بين الطرفين ، لذلك عمل محمود نديم بك على تمثيل الإمام في أنقرة كما سبق وأن ذكرنا .

وبالنظر إلى شخصية كل من الإمام ومحمود نديم بك يرى الباحث أن الخلاف لا بد وأن يحدث بين الطرفين . إذ كان الإمام يحيى ذا شخصية قوية ، شديدة الحذر في التعامل مع الغير ، وشديد الشك في نوايا الأجانب بالذات ، إلى جانب كونه رجلا بسيطا ينبذ العظمة ، ويكره ألفاظ التفخيم ، ويبغض المراوغة (64) ، في المقابل كان محمود نديم بك ذا شخصية قوية صريحا ، حلو المعشر ، مليء بالغرور ، حريص على إرضاء الأوربيين الذين يتصلون به . إلى جانب كونه مخادعا ماكرا ، ممتلئ بالروح التركية . وقد أورد عنه جيكوب عند بقائهما مع بعضهما البعض في باجل ، وكان الكولنيل جيكوب قد تبسط مع مشايخ القحرا وأخذ يطوف بينهم ويقدم لهم السجائر" إن هذا السلوك يا حضرة المندوب يحط من قدر الشخص ، فأنت تنهض من مكانك وتتولى خدمة هؤلاء الكلاب من العرب ، ووالله لو كنت في كرسي الحكم لربطتهم ولعاقبتهم مثل ما كان يحدث في الأيام الخالية" (65)

ويصف لنا جيكوب الحالة النفسية لمحمود نديم بك بأنه " اليوم يبدو مجردا من كل قوته ، ويصبح مستخدما من طرف الإمام الذي اكتشف بأن خدماته في أثناء الحكم التركي كانت فائقة القيمة "ويصف لنا موكبه للصلاة بقوله :"ويعتبر موكب البك لصلاة الجمعة في باجل فخما وجليلا إذ كان يمشي متشامخا إلى الصلاة ببطء مع أتباعه المحاربين الزيود" ، ووصفه جيكوب بأنه كان شخصا مخادعا كبير المكر ، مؤيد لوجهة النظر التركية ، كما أورد والمظلة السرادقية الكبيرة مرفوعة فوق رأسه وهو يبعثر الهبات مع مرافقه ... ، كذلك المنح والهدايا على الشحاذين والمتسولين المحليين اللذين كانوا يحتشدون في طريقه (66)

ومع تحفظنا على بعض ما ورد في كلام جيكوب عن محمد نديم بك ،إلا أنه يعكس لنا بجلاء بعض جوانب شخصية هذا القائد ، فهو يتصف بالغرور المناقض لتواضع الإمام يحيى ، ويتصف بحبه للفخامة التي يبغضها الإمام يحيى ، كما يتصف بالمكر والدهاء الذي يدفع الإمام للارتياب فيه . كل ذلك في رأينا يدفع للتنافر بين الشخصيتين .

ويمكن القول أن العامل الحاسم في الجفوة بين الطرفين كانت تكمن في نهج الإمام في العمل السياسي حيث أن الإمام يحيى كان يدير حكمه بطريقة مركزية صرفة ، وأن أسلوبه هذا لن يعطي للوالي السابق لليمن المكانة المرموقة التي توخاها كوال عثماني ، ولعل بخل الإمام يحيى ، وحذره في الإنفاق على حكومته ، ومن يعملون معه كان دافعا رئيسا للابتعاد عنه.

هذه الاختلافات جميعها تجعلنا نميل إلى القول بأن التفاهم بين الشخصيتين كان وقتي ، وأنه سيزول بزوال مسبباته ، وقد أفرزت نهاية الحرب العالمية الأولى هذه المسببات ، فقد بدا واضحا أن الإمام يحيى قد نجح في تثبيت حكمه ، وأنه ما جاء عام 1344هـ / 1925م إلا وكان الإمام قد استكمل توحيد الأراضي اليمنية في دولة مركزية ، ولم يتبق خارج نطاق هذه الدولة إلا عدن والمحميات البريطانية ، التي بلا أدنى شك لن يكون لمحمود نديم بك دور ايجابي فيها إذا ما اعتمد الإمام فيها على مبدأ المفاوضات لموقف البريطانيين السابق ذكره من محمود نديم بك . كما أن نهاية الحرب العالمية الأولى قد أحدث متغيرات على المستوى الدولي لعل من أهمها إلغاء الخلافة العثمانية ، حين صدر قرار الجمعية الوطنية التركية بإلغاء الخلافة العثمانية وقيام الجمهورية التركية ، واختيار مصطفى كمال أول رئيس لها في 13 مارس 1924م.(67)

لذلك نجد محمود نديم بك يذكر الإمام يحيى عند أحد مسئولي القنصلية البريطانية في جدة ، أثناء مروره بها عام 1930م بأنه - أي الإمام يحيى – انتهازي لا ثبات له على حلف ، وان محمود نديم بك قد نصحه مرارا بأن الخير لليمن أن تتحالف مع البريطانيين . ويروي هذا المسئول البريطاني أن محمود نديم بك أوضح له أن الأوضاع في اليمن قد ترديت كثيرا تحت حكم الإمام ، وأن القبائل اليمنية في حالة استياء شديد ، وأنها سترحب بأية قوة خارجية لإصلاح أمورها . وأوضح هذا المسئول

البريطاني أن محمود نديم بك قد عرض خدماته على البريطانيين ، وربط ذلك بحاجة نديم إلى المال ، كما ألمح هذا المسئول إلى إمكانية استخدام الملك عبد العزيز لخدمات الوالي العثماني السابق لليمن . كما ذكر أن محمود نديم بك وكان قادما من مصوع لا ينوي العودة إلى اليمن نظرا لما وردت إليه من أخبار عن اضطراب الأمن فيها ، ويرى المسئول البريطاني ، أن ما تحدث به نديم بك غير مقنع مقارنة بما ورد إليه من أخبار من أن الملك عبد العزيز ينوي القيام بعمل ما في هذه المنطقة . (68) ومن المعروف أن العلاقات بين الملك عبد العزيز آل سعود ، والإمام يحيى قد شهدت تأزما عندما سيطر السعوديون على بعض مناطق تهامة ، ثم شهدت العلاقات هدوء نسبيا في العام 1928م حيث اتفق العاهلان على حل إشكالات الحدود عن طريق المفاوضات ، بيد أن الصراع ما لبث وأن استعر بين الطرفين في عام 1931م ، واستمر قرابة سبع أسابيع ، وانتهى بمعاهدة 1934م بين البلدين . (69)

وبفرض دقة ما ورد في هذه الوثيقة فإنه وكما يبدوا للباحث فإن محمود نديم بك الذي لم يجد في شخص الإمام يحيى ذلك الحاكم السياسي الذي كان يتصوره أثناء الحرب العالمية الأولى ، فقد رأى أن الابتعاد عن اليمن والإمام يحيى ، والعمل مع حاكم جديد أكثر طموحا وإمكانات ، وقد وجد ضالته في شخص الملك عبد العزيز .(70)

وقبل أن نختم دراستنا هذه تجدر الإشارة إلى أنه وعلى الرغم من حجم عداوة محمود نديم بك للبريطانيين على النطاق الرسمي أثناء فترة ولايته والفترة التي قضاها في خدمة الإمام يحيى باليمن ، قد كان دائم الحرص على إبقاء باب الود بينه وبين البريطانيين مفتوحا على الصعيد الشخصي . وليس أدل على ذلك من الرسالة التي بعث بها محمود نديم إلى المقيم السياسي البريطاني بعدن في يناير 1922م يطالبه فيها بأن يتحصل على مبلغ 100 دولار كان قد اقرضها محمود نديم بك للقنصل البريطاني في الحديدة ، السيد ريدشاردسون (Richardson) عندما كان هذا القنصل وزميله الفرنسي في صنعاء أثناء الحرب العالمية الأولى ، وكيف أن محمود نديم بك عاملهما بكل لطف ولياقة ، فلم يضيق عليهما وقد اعترف السيد ريدشاردسون (Richardson) بحسن معاملة نديم بك لهما على الرغم من ظروف الحرب ، وسدد إليه المبلغ لا حقا .

وفي هذا الإطار نذكر الدور الإيجابي الذي لعبه محمود نديم بك لتخليص بعثة جيكوب من الأسر في العام 1919م ، حيث أثنى جيكوب على دوره ثناء كبيرا ، واخبر لأنه كان مخلصا وجادا في تحقيق هذه الغاية على الرغم مما واجهه من إهانات ومصاعب ، كونه مرسلا من قبل الإمام يحيى لقبيلة القحرا . (71) . ويبدوا أن السيد محمود نديم بك كان يضع فروقا بين العمل الرسمي والعلاقات الشخصية الإنسانية ، فعمله الرسمي المعلن كان هو العداء والكراهية المفرطة للوجود البريطاني في اليمن ، وقد بادله البريطانيون هذا العداء للحد الذي طالب المقيم السياسي في عدن ترحيله من اليمن

بأسرع وقت ممكن – كما مر سابقا - أما على الصعيد الشخصي فكان يميل إلى التودد للبريطانيين ، فهل يفهم من هذا أن محمود نديم بك كان يريد أن يؤمن لنفسه بتعامله الحضاري هذا يدا بيضاء لدى البريطانيين يمكن أن يستعملها في وقت الحاجة لها . أم أن الأمر لا يعدوا وأن يكون طبع جبل عليه وهو في شخصيته .

ويبدوا أن محمود نديم بك لم يستقر في اليمن طوال الفترة التي أعقبت الحرب العالمية حيث يشير Ali (Birinci) أنه قد عاد إلى تركيا في مايو 1923 وتقاعد عن العمل في 24 أغسطس عام 1923م ، وأنه استقر في أضنة لبعض الوقت ثم انتقل إلى استانبول في مارس عام 1926م ليسكن في داره الذي منح له بموجب النظام حيث صدر له صك امتلاك الدار في يوليو سنة 1932م . وهذا يعني أن الوالي العثماني السابق كان قد **صرف عن** ذهنه البقاء المؤقت في اليمن ، وإن كنا لا نتفق مع ما ذهب إليه الدكتور علي بيرنسي من أنه تقاعد عن العمل في التاريخ المذكور سابقا ، بدليل قيامه بعدد من المهمات للإمام يحيى ، واتصاله بالبريطانيين ، والملك عبد العزيز بعد التاريخ المذكور.

خلال عمله في الإدارة العثمانية تقلد محمود نديم بك عدد من الرتب وهي على النحو التالي :

RUTBE-I SALISE

RUTBE-I SANIYE

SINFI-SANISI

UCUNCU-RUTBEDEN MECIDI NISANI

وتوفي محمود نديم بك في الساعة الحادية عشر والنصف في 11 مارس 1940م في منزله بميدان تكسيم بإستانبول.(72)

الخاتمة :

نخلص في ختام دراستنا هذه إلى أن الوالي العثماني محمود نديم بك ،كان آخر الولاة العثمانين باليمن وأن سنوات حكمه للوالي قد بلغت إثنا عشر سنة (1911-1923م)، وأنه قد اختلف عن الولاة الذين سبقوه في هذه الولاية من حيث طول فترة ولايته باليمن ،ولعل اندلاع الحرب العالمية الأولى كانت سببا مباشرا لطول فترة ولايته كما تميز عن غيره من الولاة بسعة خبرته بأمور اليمن ومشاكلها باعتبار ما كان له من خدمات فيها قبل الولاية ، وباعتبار إجادته للغة العربية التي مكنته من تلمس مشاكل القبائل بصفة خاصة ،والمجتمع اليمني بصفة عامة. ويمكن القول أن ظروف توليه الولاة في أعقاب صلح دعان ، أسهم إسهاما كبيرا في نشر السلام في اليمن قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى.

وكما هو معروف فقد تزامنت فترة ولاية محمود نديم بك لليمن مع قيام الحرب العالمية الأولى ، وانخراط الدولة العثمانية في معسكر دول المحور ،الأمر الذي دفع الوالي لرفع لواء الإسلام لكسب ود